جائزة عبدالحميد شومان لأدب الأطفال

(الرواية الفائزة بالجائزة دورة ٢٠١٣)

قمرُورد

رمزي الغزوي

رواية لليافعين

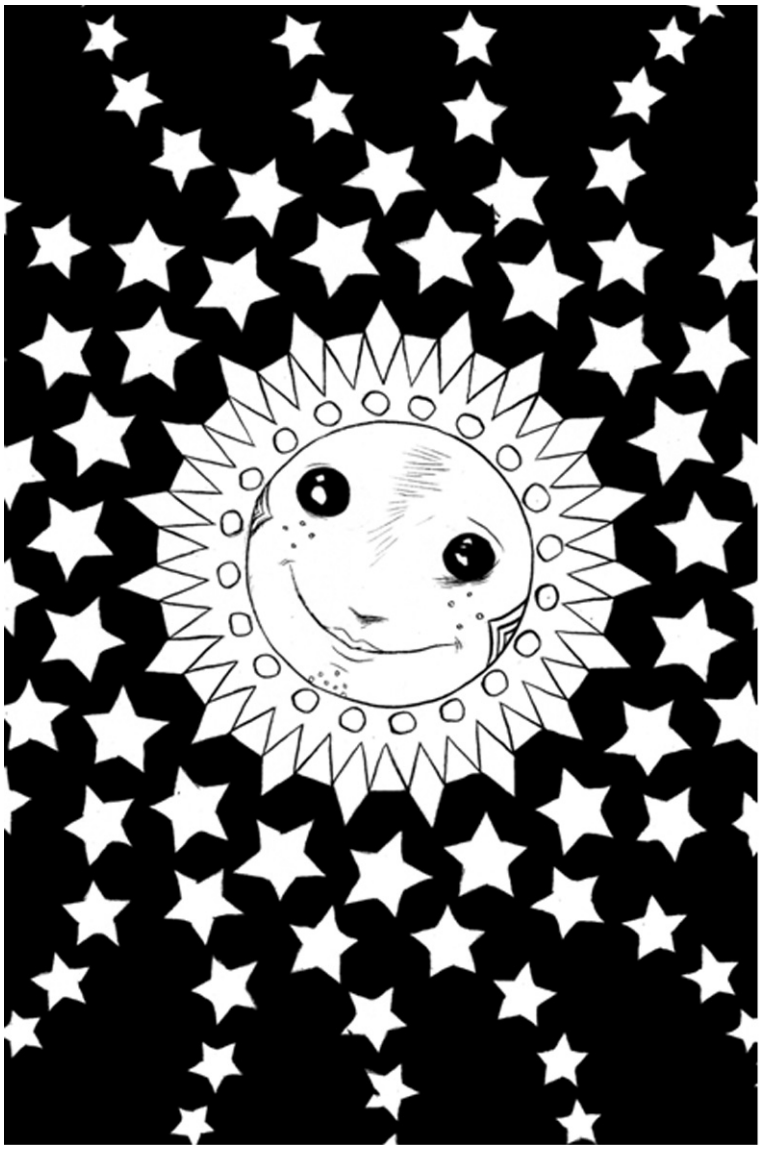

الشَّمسُ نجومٌ تتجمَّعُ

من شرفةِ بيتهم المُطلّة، في ضاحيةِ الرشيد شمالَ عمَّان، تمنَّى وردٌ لو أن كلَّ الغيوم السَّابحةِ في صحن السماءِ، تحتشدُ وتتجمّعُ بسرعة؛ ليهطلَ مطرُها غزيراً. وللمرَّة الأولى يشتاقُ من كلِّ قلبه، أن يتدثّرَ قَمرُهُ غير المكتمل، ويتغطّى بلحاف السُّحبِ. فلا معنى لرحلة الصَّباح بلا رعدٍ وأمطار.

غافلَ أفرادَ عائلته السَّاهرين، في غرفة المعيشة، وتسلّل إلى الشرفة مكتنزاً معطفَ أبيه الأسود الفضفاضَ، وقبعته الصوفيَّةَ روسيَّة الصُّنع، رغم اتساعها على بطيخة رأسه، كما يقول ضاحكاً كلما رأته العائلةُ يعتمرها.

وقبل العِشاء كان أكّد لصديقيه برسالة هاتفيّة أن الانطلاق في الثامنة صباحاً. وها هو الآن، وبعد انتظار طال يكادُ يبكي فرحاً؛ لإحساسه برذاذٍ خفيفٍ يداعبُ وجهه بأوَّل المطر، وأن برقاً أضاء عمّان وسماءها، وتمنّى لو أن هذه (الكاميرا) الكبيرة (بفلاشها) الباهر تلتقطُ له صوراً مع ذكريات تداعت إليه.

تذكّر بكاءه الناعمَ، في بيتِ جدِّه قبل ثمانية أعوامٍ تقريباً، لمّا كان في الخامسة من عمره، بعدما راقب بشغفٍ قرصَ الشَّمس يغيبُ بهدوء وراء الجبال. وكيف دثّره جدّهُ بعباءته ليراضيه، فلم يرضَ. بل هطلت دموعُه، فمسحتها جدَّتُه ووعدته أن ينامَ على

سطح البيت، كما كان يحب.

بكى ورد لتخيّله أن الغروب الأحمر في الأفق، ما هو إلا دم الشَّمس. وتصوَّر أنّهُ لن يراها ثانية. في تلك الليلة تأمّل النُّجومَ اللّامعة في قبَّة السَّماء، وهو في فراشه على سطح البيت، وبين الحين والآخر، كان يحاول أن يصافح النجماتِ البعيداتِ برؤوس أصابعه، ولأنه لم يستطع؛ أخذ يوصل خطوطاً بينها؛ ليشكِّلَ صوراً يحبُّها.

رسم دُبَّاً يصطادُ سمكاً من نهرٍ هادر. ما لبث أن بعثرَ نجومه، وشكَّلها فأراً يهربُ لاهثاً من قطٍّ شرس. لكنّهُ بعثرها بسرعة تعاطفاً مع صديقه الصغير. ثم شكَّل من النجوم البعيدة أفعىً تلتفُ حول عصفور يزقزقُ هلعاً؛ فبعثرها خوفاً عليه. ثم أخذ يعدُّها بتأنٍ؛ كي يتأكدَ أنّها ستكون كافيةً لرسم وجه أمّه التي سافرت برفقةِ أبيه إلى اسطنبول.

سمعت جدّته صوتَه الهامسَ، فنهته عن إكمال العدِّ، لأن بعض النَّاس يعتقدون أنَّ بكلِّ نجمة نعدُّها؛ ستبزغُ ثألولةٌ قبيحةٌ على أصابعنا. فبكى ليس خوفاً من الثآليل، بل لأنه تذكَّر شمسه الغارقة في بحرها.

– أين شمسي، يا جدتي؟ من قتلها؟ فأخذته بحنان في حضنها.

– انظر إلى النجوم، التي كنتَ تلاعبُها وتعدُّها، إنّها ستتجمَّعُ وتتحدُ معاً: نجمةً نجمةً، لتشكِّل شمسك بعد الفجر بقليل؛ وستطلع من هنا، مشيرةً لجهة الشرق.

قبل أن يغلبه سلطانُ النّومِ في تلك الليلة، قرّر ورد أن يحبَّ

القـمـرَ، بدلاً من شـمس تذوبُ حـمـراءَ كلَّ مـسـاءٍ. وعندمـا أراد أن يتأكّد من وجود القمر في عرض السماء، انتبه إلى نداء أمه المتكرر والمتصـاعـد بقـوَّة، تطلبُ منـه الدخـول من مطر الشُّـرفـة، وبرقـهـا الخاطف للأبصار.

– عليكَ أن تنام. لديك جولة طويلة في الصحراء.

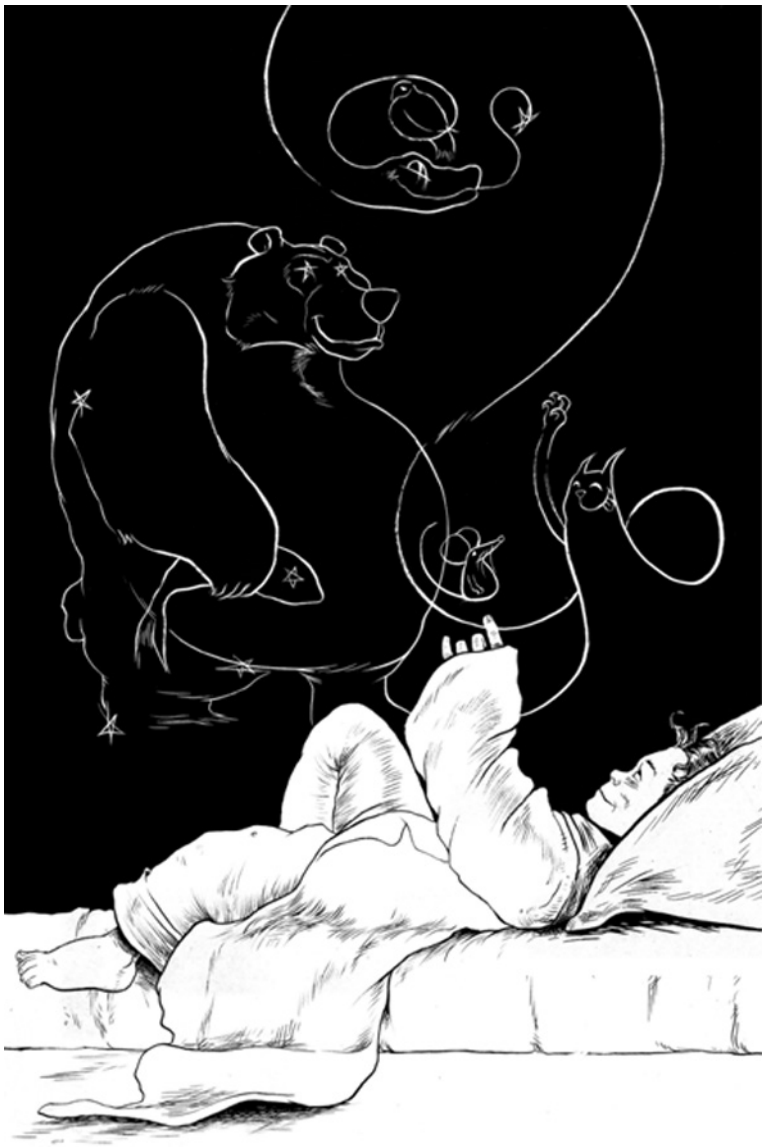

رأسُ السَّهمِ

كان أفضلَ لهم أن يتركوا سيارتهم، ذات الدَّفعِ الرباعي في عرض الصحراء بعد نفاد وقودها، وأن يمشوا ما استَطاعوا قبل غروب شمسهم الدافئة، في هذا اليوم الشتائي، علَّ طريقاً تقودُهم إلى الشّارع العام بين عمَّان والجيزة. فالبقاء مع سيَّارة متوقفة، لا يعني إلا انتظار معجزةٍ تتحقَّقُ بمرور مركبة تقلّهم، خصوصاً وأنهم أوغلوا بعيداً عن مسار السيَّارات المعتاد.

سحبهم حبلُ الكلام من حيثُ لم يشعروا، وراقتهم قوة السيّارة التي نهمتْ كثبانَ الرَّمل، وسبَّبت لهم شعوراً يشبهُ الطيران! حتى كريم، الذي يصفه أصدقاؤه بالحريص، ألهتهُ مراقبةُ السَّراب عن تفقّد مؤشر الوقود.

الأبُ سائقُ السيَّارة، وإلى جواره ابنه ورد، وفي المقعد الخلفي صديقاه: كريم ومصطفى. كلهم لم ينتبهوا إلى المؤشر الذي لم يكن مرتفعاً عندما انعطفوا من الجيزة باتجاه الرَّمل، وكان من الأولى أن يذكِّر وردٌ أباه بتعبئة الخزّان، لكنهم وبعد ورطتهم هذه انتبهوا إلى شيء أخطر، وهو فقدان إشارة البثِّ في هواتفهم.

- اكتلمت المصائبُ علينا من كلِّ الجهات. تأفّف مصطفى متضجّراً، وقطّب وجهه عابساً، ثمّ وبحركة غضب رمى هاتفه، بكل ما أوتي من عزم.

– ما الفائدة منك أيها الغبي؟!

يحبُّ الأبُ الصحراء ومغامراتها، كحبِّه الجبال بشجرها وعنفوانها، والوادي بمائه وأزهاره، ويشعرُ أنه ورَّثَ هذا الحبَّ بكامل تفاصيله لأبنائه، وخصوصاً ورد. ولهذا أيقنَ أن هذا التيه الصحراوي سينتهي سريعاً، فمن المُحال أن نضيعَ مع أشياء نعشقها، وسيكون درساً له كي يتعوَّد أن ينتبه إلى وقودِ مركبته، قبل أن يكون درساً لابنه وصديقيه الخائفين، ليكونوا على ثقة دائمة بقدراتهم.

ألحَّ وردٌ على أبيه، أن يقوموا بهذه الجولة؛ كي يجنوا بعضاً من (الكمأة)، فقد عرف من زميلته جود، التي يسكن جدُّها قربَ منطقة الجيزة، أن صحراء جنوب عمّان تُنبتُ أحياناً هذا الفِطر اللذيذ، بعد ليلة ماطرة حافلة بالرَّعد، كليلة أمس.

وورد شاهد أكواماً من الكمأة العام الماضي، تُباعُ قرب آثار سبيل الحوريات في سوق الخضار وسط عمان، وبسعر عالٍ كونه يُستوردُ من الجزائر والسعودية، كما قال البائع.

وهذه المرَّة الأولى، التي لا يكون فيها ورد برفقة أخويه: عمر ونايا. لكنَّ هذين الصديقين أخبراه مراراً بأنهما يحبَّان حديثه عن المغامرات، التي تقوم بها عائلته، كما يحبّها سائرُ طلبة الصف الثامن، فدعاهما لمشاركته المغامرة.

بعد أن مشوا مبتعدين عن سيارتهم، انتابت مخيلةُ مصطفى مشاعرُ مُضخَّمة من الخوف، فتصوَّر أن الليل سيطبقُ عليهم كغول، وأن الضباع ستتناوشه قبل أن يجدوا طريقاً تعيدهم إلى عمّان، فبكى بصمت كيلا يراه ورد، المنهمك بالبحث عن الكمأة بعصا

قصيرة تنبشُ أديم الأرض، وكأن الضياع لا يعنيه من قريب أو بعيد. فهمس بنفسه:

- يا لَبرودة أعصابك!

أيقن كريم بعد فشله بإرسال رسالة إلى والدته، أنَّ الموتَ نتيجةٌ حتميّةٌ ليوم اعتقد أنّه سيكون ممتعاً، وقد لام نفسه، لعدم سماع نصيحة أخيه حين قال:

- أي جمال في الصحراء؟ ورمالها؟! وأي كمأة ستجدون؟!

لَبسَ الأبُ ثوبَ الهدوءِ، كي يعطي إحساساً بالثقة لرفاقه الشباب، ويمنحهم إيماناً بقدرتهم على العودة إلى عمان. واقترح أن يسيروا حفاةً، فالرّمال تخلقُ في أجسامنا شعوراً مدهشاً، سيما أن الشّمس تدفقُ ضياءها الدافئ، في هذا الشهر الكانوني البارد.

وطلب منهم، وهم مبتهجون بتجربة المسير الحافي، أن يلتفتوا إلى سرب طيور تمخرُ عبابَ السماء، على شكل رأس سهم، معتقداً بأنّها مهاجرة، في طريقها إلى أفريقيا، هرباً من برد أوروبا، كما تفعل كلَّ سنة، وأنّ الأردن ممرٌّ لها. وربما حطَّت رحالها في واحة الأزرق قبل أن تصلنا، وهي متّجهة إلى الأغوار.

أُعجب مصطفى بالطائر الذي في رأس السَّهم، فراقبه يشقُّ السماء بثقةٍ، وكأنه يعرف إلى أين يريد أن يصل. عندها لمعَت فكرةٌ في رأسه:

- بما أننا نمشي في صحراء ممتدّة، فعلينا أولاً، أن نحدِّد الاتجاه الذي سنسلكه، كي لا نوغل مبتعدين عن الطريق العام، ونزداد ضياعاً. فقال الأب بسرور.

- هذا صوت العقل. فالاتجاه الصحيحُ، لا يعني إلا الوصول الأكيد إلى الهدف!

الأب في الأربعينات من عمره، يُعملُ كاتبَ مقالٍ في صحيفة يومية. دخل الصحافة من بوابة الأدب، فهو كتب القصة والشعر قبل أن يصبح صحفيَّاً، وقبل ذلك كله، هو فيزيائي تخرج من الجامعة بهذا التخصُّص الذي أحبه، لكنه نمَّى نفسه وثقفها، وصقل موهبته في الكتابة، حتى تفرّغ لها تفرّغاً تاماً، وهذا ما يحبُّه بشغفٍ أكثر.

بوصلةُ الماءِ والنارِ

بعدما طالبَ مصطفى بضرورة تحديدِ الاتجاه قبل أي شيء آخر، عاد الأبُ بذاكرته أكثر من ثلاثين سنة مضت. وقال لرفاقه، إنّه حينما كان في الحادية عشرة من عمره، رافق ابن عمه وصديقه شاهر إلى صحراء مدينة الزرقاء، قبل أن تصلها موجات إسمنت العمران والبيوت.

يومها أخذوا ماءهم وطعامهم، واشتروا تُرمساً من عربة بائع جوّال في الجبل الأبيض، ومشوا ماخرين الصحراء، لتأخذهم الأحاديث عن أفلام السينما، التي لم يكن دخلها، إلا مرتين. لكنّ ابن عمه الماهر بسرد القصص، جعلهُ يحسُّ بأنه شاهد كلَّ الأفلام، حتى التي لم تعرض بعد.

أخذهم النّهارُ، وهم مبتهجون بشُجيرة سِّدر أعجبهم ظلُّها. وعندما همّوا بالعودة، لم يعرفوا أيَّ اتجاه يسلكون، فلم يكن يلوح لهم أيُّ بيتٍ أو طريق. فبكى شاهر، بحجّة أن والده سيعاقبه على التأخير.

ويضيف الأب، الذي سَبَحَ في ذاكرته، إنه كان عليه، وهو أصغرهم سنّاً، أن يتماسك متظاهراً بعدم الخوف، ويؤكد بثقة عالية:

- سأُعيدكما إلى الزرقاء، فلا تقلقا.

ويركض فجأة نحو أنبوب معدني غليظ (ماسورة)، يمتدُّ كأفعى عملاقة، فوق الرمل صارخاً بفرح:

- وجدتها! وجدتها!

- هل وجـدت الطريق يا (فطحل) زمـانك؟ سـأله ابن عـمـه بسخرية.

فـأشـار إلى الماسـورة، فـهي بلا شـكٍّ تغـذِّي الزرقـاء، ولا بدَّ أن الماء يجري إليها، وإذا عرفنا اتجاهه، فسنمشي معهُ، لنصلَ البيت.

لم يأخذ ابن عمه كلامهُ على محمل الجَدِّ، بل واصل تذمّره وشتمه لحظهم العاثر. لكنَّ شاهراً طبع صَيوان أذنه على الماسورة وأنصت:

- الماء يجري، ولا أستطيع تحديد اتجاهه؟!

- علينا أن نكسرها إذن؛ قال ابن عمه هازئاً.

- لا داعي للتـخـريب. سنعـرفُ اتجـاه الماء بالنار. فـصُـعِقَ الصديقان.

- بالناااار يا باشا؟!

لم يأبه بسخـريتهـما، وطلب علبة الثِّقاب. ثم جمع أغصـاناً جافة، وأشعل ناراً تحت الأنبوب. وأخذ يضعُ يده على الماسورة يمينَ النار مـرةً، وعلى شـمـالـها مـرة أخرى. وحين شـعـر بالجهـة الأكثـر سخونةً، أشار واثقاً:

- من هنا سنتجهُ! فالماء يتدفقُ بهذه الاتجاه.

بقليل من الحَيرة، وكثير من الإعجاب بذكاء الأب، حين كان طفلاً. قال كريم:.

- فكرتُكَ كـانت ذكـيَّـة يـا عمُّ. لكن من أين سنجـدُ مـاسـورة

تقودنا؟ فردَّ ورد ضاحكاً.

- سنجدُ بوصلةً في (الآي فون) تشيرُ إلى الاتجاه الصحيح يا صاحبي. فضحكوا وكأنهم نسوا أمرَ هواتفهم الذكية.

بعد قليل من المشي، لمحَ مصطفى شيئاً متحركاً، يبدو كنملة سريعة، مثيرةً لقليل من العجاج والغبار.

- سيَّارة تتجهُ إلينا!

مع فرحهم بمن سينقذهم، تذكّر الأب فرحه في ذلك اليوم البعيد، فبعد أن مشوا مئات من الأمتار مع أنبوب الماء، مرّت سيّارةٌ عسكريَّةٌ، وتوقفت جوارهم.

- وين (دايرين)؟! الصحراءُ ليست نزهة. ألستم خائفين من الضِّباع و(الواويات)؟! قال السائق بخشونة وكأنه يوبّخهم.

وحين طلب منهم أن يركبوا تحقّق حلمُه بأن يعتلي سيَّارة عسكرية كبيرة من نوع (كونتنتال)، ذات الصوت الزاعق، وضعتهم في أقل من نصف ساعة على الجسر القريب، من طلعة الجبل الأبيض.

فيما بعد، سأله ابن عمه عن الواويات، لأنه يعيش في قرية، وربما يعرف هذه الأشياء.

- إنّها الثعالب، أو بنات عرس. وهي لا تخيف أحداً!

شعر ورد بالفخر والنشوة، وكأن ماسورة الماء أنجته وأرشدته.

- أنت يا أبي تستخدمُ الفيزياء، من ذلك اليوم، وطبقت بذكاء ما تعلَّمته في المدرسة، عن التوصيل الحراري. فقال كريم بعد انحلال توتره:

- وها هو الحظُّ الجميل يحالفنا كما حالفكم يا عمُّ، وتأتينا

سيَّارة، ولكنَّها ليست عسكريَّةً.

- تمنّيت أن تكون كونتتال. ردَّ مصطفى منفرجَ الأسارير.

توقفت سيَّارة النقل الصغيرة (البك أب) الحمراء. وبعد التحية والتعارف، أبدى سائقُها استعداده للمساعدة. وفي أقلَّ من ساعة، كانوا يعودونَ من محطَّة الوقود بجالونات من البنزين صبّوها في خزَّان السيَّارة. ولم يتركهم السائق الدمث اللطيف:

- سيروا خلفي. كي لا تفقدوا الاتجاه.

- المهم ألا ينفد وقودنا! قالها كريم شاعراً بسعادة أنستهُ خوفاً عاشه لساعتين أو أكثر.

وما إن وصلوا إشارات الدوّار السّابع في جبل عمَّان، حتَّى أحسَّ ورد، بأنه لم يكن سعيداً بجولة الصحراء، أو بكميّة الكمأة التي جناها. بل أسعده أكثر أن أباه جعله يعيشُ لحظات من القوَّة والثقة، أكّدت له أن الحياة واسعة. وعلينا أن نحدِّد اتجاهنا فيها قبل كلِّ شيء.

أشجار الضوء

لم يخلد وردٌ مبكراً لنومه، في تلك الليلة، ليس لأن خطَّ الاتصال لم ينقطع مع كريم ومصطفى، والأصدقاء، الذين وصلهم خبر مغامرتهم. وليس لأنه فكَّر كيف أن والده في طفولته استطاعَ أن ينقذ نفسه وصديقيه، باستخدام فكرة أن الماء ينقلُ الحرارة، وأن الجهة التي سخنت أكثر من طرفي الماسورة، هي اتجاه النجاة.

سهر ورد لأن سماء عمَّان، وعلى غير عادتها، في مثل هذه الأوقات، اشتعلت بالألعاب النّاريّة، فيبدو أن بعضاً من المجانين اختاروا أن تكون أعراسهم في هذا البرد. فابتسم متذكّراً المثل الشعبي الذي طالما ردّدته جدّتُه: (أعراسُ المجانين في كوانين).

كانت شرفته تُضاءُ بوميض قوي كبرق ليلة أمس، وبعدها يأتيه صوتُ الألعاب مدوِّياً. ولأنه تعوَّدَ مذ كان في الخامسة من عمره، أن يهرعَ إلى الشرفة كلما سمع انفجارها، لذا لبس معطفه ووقف ينتظر إطلاقات جديدة؛ ليرى أشجاراً من الضوء، ووروداً ملونة وأشكالاً جذابةً، ترتسمُ في صفحة اللّيل.

وفيما هو مندمج بمراقبة كرة انفجرت مثل نافورة أضواء حمراء، أحسَّ بوالدته وأخته جواره.

– يبدو أن ضياعكم في الصحراء سبَّب لك أرقاً. قالت أمه وهي تضمُّه إلى صدرها.

– لم أكن أعرف أن أبي من صغره يمتلكُ ذهناً متَّقداً!

– ولكنّك تعــرفُ أنّه أورثني هـذا الذهـن! همــست نايا، وهي تبتهجُ بكرة ضوءٍ صغيـرةٍ تشقُّ العتمة، وتنفجـرُ راسمـةً شجـرة ورد! لكن خوفها بعد وصول صوت الانفجار، جعلها تلتصق بأمّها.

– أنتِ في الصَّف الثَّالث الأساسي، وعليك ألاّ تخافي.

– لستُ خـائفةً! بل أفكِّرُ لماذا نرى أشكال الضوء قبل أن نسـمع صوتها؟

– أنتم عـائلة لا تمرِّرُ شـيـئاً دون أن تفكِّر به! ولكنهـا مـلاحظة جميلة، سيشـرحها لكِ أخوك، فـأنا بردانة، وعليَّ أن أدخل؛ لأتأكّدَ أن عمر ترك (التابلت) وألعابه التي سيدمنها!.

– أمي تقـول إنَّكَ كنتَ تريدُ أن تصـبحَ رائد فـضـاءٍ. فكم راتب رائد الفضاء؟!

ضـحك ورد لأن أختـه بخـفّـة دمـهـا، لا تكفُّ عن اهـتـمـامـهـا بالأرقـام وبالسـؤال التلقـائي عـن راتب كلِّ مـهنة تسـمـع بهـا. ولهـذا طلب منها أن تدعَ جانباً قصّةَ الراتب وتجيبه:

– أيخيفُكِ صوتُ الألعـاب النارية إلى هذا الحدِّ؛ كي تلتصـقي بأمي كأرنب؟!

– بل يحيِّرني. أنّنا نرى أضواءها ثم نسمعُ صوتها!

ابتسم مـادحاً ذكاءَ أختـه، وذكّـرها بالبـرق والرعـد. فـقـالت إن البـرق كـان لامـعـاً، والـرعـد قـويّاً ليلة أمس، وإنَّ أمـهـا طلبت منهـا أن تدخل من الشرفة؛ فأجابتها:

– أريدُ من البرق أن يأخذ لي صورةً يا أمي!. فضحك، وعرض عليها أن تأخذ صورة بكاميرا الألعاب الناريّة.

– وهل كنتِ تســمـعينَ الـرعـدَ، وتـرين البــرق في الوقت ذاته؟ فهـزَّت رأسـهـا مبينة أنهـا رأت البـرق، قـبل أن يشـرِّفَ السـيدُ رعدٌ بصوته الهادر.

– ومـاذا يعنـي هذا؟ فـقـالت بعـد أن رفـعت خـصلة شـعـرٍ عن عينها.

– البرق ضوءٌ، وهو أسرع من الرعد.

– رائعـةٌ أنتِ! الضوء يسيرُ بسـرعة 300000 كم في الثانية، أي يمكنـه أن يلفَّ خطَّ اسـتـواء الكرة الأرضـيــة سـبعَ مـراتٍ في ثانيـة واحدة. بينما الصوت لا تتجاوز سرعتهُ 340 متراً في الثانية؛ ولهذا نرى الأشكال التي يصنعـهـا ضـوءُ الألعـاب النّارية، قـبل أن يصلنا صوتُها.

أبو ورد كان مسترخياً في كرسيِّه الهزَّاز، وعلى صدره كتاب يقـرؤه، ولكنّه على وقع رحلة صـحـراء الجيـزة، تداعت له ذكـريات قـديمة، فاسـترجع أفـلامـاً سـمع قـصّـتهـا، دارت في رأسـه كفـيلم جديد.

قلبٌ لمدينتين

التفّتِ العائلةُ حولَ مصطفى العائد من مغامرته، فصار نجم السهرة. يحدّثهم عن الصحراء واصفاً شعوره في لحظات اليأس، وكيف اعتقد أنه أصبح عشاءً للوحوش، وأن قلبه سقط في حذائه من شِدَّة الخوف.

مصطفى المُعجب بفكرة والد ورد، بيّن لأهله أن علينا توظيف العلم في حياتنا، وأن نستخدم كلَّ المعارف، التي نتعلمها في المدرسة، أو من التلفاز، أو من الإنترنت، أو من الأصدقاء. واعترف باعجابه الشديد بشخصية صديقه ورد، الذي ينادونه تحبُّباً (عملوني)، لأنه أجاب بهذا الاسم المنحوت من كلمتين: عماني عجلوني عندما سألته المعلمة:

- هل أنت عماني أم عجلوني؟

ورد يفتخر بأنه من عجلون مدينة الغيم والجبال والقمح، وأنّ روحه في زيتونها. ويعتزُّ بأنّه عمَّاني أيضاً، يحبُّ مدينته التي تضرب جذراً في التاريخ والحضارة؛ ولهذا اشتق اسمه من المدينتين: عمان وعجلون.

- أنا عملوني!

كان والد مصطفى مرتاحاً لانطلاقة ابنه الذي كان منطوياً متقوقعاً على ذاته، شغله الشاغل ألعاب الكمبيوتر، وإدمان

الانتـرنت، وأنه لم يكن يفكِّرُ مطلقـاً بـالقـيـام بـأيّة مـغـامـرة. وكـان مـرتـاحـاً أكثـر لرأيه بضـرورة اسـتـخـدام العلم في الحيـاة اليـومـيـة، ولهـذا طلب منه أن يوضِّح المبـدأ، الذي اسـتند إليـه أبو ورد للنجـاة من الصحراء.

قبل أن يشـرح أن الحـرارة تنتقلُ بطريقـة الحـمل في الماء، كمـا في أنابيب التـدفئة المركزية في بيوتنا، تدخّل أخوه الأصـغـر طالبـاً منه أن يعـدّد لهم فوائد (الكمـأة)، وسـأل عن إمكانيـة زراعتهـا في حديقتهم؟

بنتُ الرَّعدِ

اقترح أبو مصطفى على ابنته سارة، أن تُعدَّ تقريراً قصيراً عن الكمأة، لتمنحهم مزيداً من المعرفة، عن هذا الفِطر البري، وطلب من الجميع، ألا يقاطعوا مصطفى الذي استأنف حديثه:

- عندما نُوقدُ ناراً تحتَ أنبوب ماء معدني، فإنَّ الماء يسخنُ، ولأنه متحركٌ؛ فسيحملُ الحرارةَ باتجاه سيره، ولأن سيره بالضرورة نحو المدينة، فالجهة التي سخنت أكثر، كانت طريق نجاتهم!

بوصلةُ الماء والنار هذه لم تعجب الأمَّ كثيراً، فهي تكره النيران واللعب بها. وأعجبتها ذكريات الزرقاء. فهي مَسقطُ رأسها، وفيها تربّت وترعرعت. ثم قصّت على أولادها بعضاً من رحلاتها الكثيرة مع عائلتها إلى وادي الحجر وعوجان، وأنهم كانوا يسبحون في سيل الزرقاء.

الأبناء الذين تعجَّبوا من وجود ماء في مدينة جافة كالزرقاء أجابهم الأب:

- السَّيل الذي تتحدثُ عنه أمُّكم كان نهراً دفّاقاً، ينبعُ من عمّان في منطقة رأس العين، وتحديداً جوار مركز الحسين الثقافي، الذي حضرنا فيه قبل ثلاثة أشهر مهرجان الفيلم الأوروبي، ولكنه سُقف بعد جفاف مائه، وأصبح يُعرف (بسقف السَّيل)، أو شارع قريش وسط البلد.

هذا النهر كان يمضي في جريانه إلى مدينة الرصيفة ثم الزرقاء، مروراً بالسُّخنة قبل أن ينحدر إلى جرش، التي بُنيَ فيها

سدُّ الملك طلال، ليخزِّن ما يروي الأغوار صيفاً.

سارة التي انهمكت بالبحث عبر محرك (Google) قرأت من حاسوبها اللويحي (الآي باد):

- الكمأة أو الترفاس كما يطلق عليها في دول المغرب العربي، وهي الفقع في الجزيرة العربية، والعبلاج في السودان. كلها اسم لعائلة من الفطريات.

وهي فطر موسمي، ينمو في الصحراء بعد سقوط الأمطار الرعدية، على عمق (5 -15) وزن الواحدة يتراوح من (30 - 300) غم، ويُعد من ألذَّ الفطريات. وهنا تذكّر مصطفى حقيبته التي ملأها، فوزّع منها على أسرته؛ ليتعرفوا عليها.

انتظرت سارة عودتهم إلى الهدوء لتتابع القراءة من موسوعة (ويكيبيديا):

- تحتوي الكمأة على البروتين بنسبة 9%، ومواد نشوية 13%، ودهن 1%، وعلى معادن مشابهة لتلك التي يحتويها جسم الإنسان مثل الفوسفور والصوديوم والكالسيوم والبوتاسيوم. كما تحتوي على فيتامين (ب1، ب2)، وهي غنية بفيتامين أ.

وقرأت بأنها تحتوي أيضاً على كمية من النيتروجين بجانب الكربون والأكسجين والهيدروجين، وهذا ما يجعل تركيبها شبيهاً باللحم. وطعم المطبوخ منها كطعم كُلية الخاروف. وهي تحتوي أحماضاً أمينية ضرورية لبناء خلايا الجسم. وهنا يتدخّل الأب:

- الكمأة بنت الرعد، لأن البرق ورعده يعملان على تثبيت النيتروجين في التربة، مما يعطي الحافز لبزوغ هذا الفطر الشهي.

- متى سنأكل بنت الرعد؟

ذهبٌ بلا خرائط

عندما همَّ مصطفى بالنهوض إلى فراشه، طلب من أمه حكاية النوم اليوميّة، ورغم أن أخته الكبرى اعترضت، بحجّة أنّه نال مغامرةً تغنيه عن كل حكاية. إلا أن الأم تبعته، ووجدته يغالبُ النوم، ليبقي عينيه مفتوحتين.

- أنت مُتعبٌ! من الأفضل أن تنام.

- حكاياتك تجمّلُ نومي وتصنعُ حلمي.

فقصت عليه قصةً الصديقين سعد وسعيد اللذين عرفا من خريطة قديمة، أن في البئر البعيدة كنزاً ذهبياً، فقرّرا المغامرة للحصول عليه.

وفي ليلة ليلاء، لا قمر فيها، وصلا متعبين، من مشقّة المسير الطويل، فقال سعيدٌ:

- أنا سأنزلُ في البئر يا صديقي. سأربط نفسي بالحبل، وأنت تدليني بهدوء، فأملأ الكيس ذهباً وتسحبني.

أنزله سعدٌ إلى قاع البئر، التي لم يجد فيها سوى (خُرداوات)، وأحذية بالية، وعظام نخرة، وأشياءَ لم يتبيّن نوعها، فقرّر أن يمتحن صديقه، ويختبر قوة صداقته، فصاح بفرح:

- وجدت ذهباً كثيراً يا صديقي، سأملأُ الكيس، وترفعه، ثم ترمي الحبل وتسحبني. لكنَّ سعيداً حشر نفسه في الكيس:

- ارفع يا صديقي. الكيس ذهب خالص!

رفعه بجهد كبير، فقد كان ثقيلاً جداً، وما إن رآه ممتلئاً، حتى امتلأت نفسهُ طمعاً وجشعاً، فقرَّر أن يترك صديقه سعيد في البئر، وينفردَ بالكنز.

رفع الكيس بمشقة على ظهره، ثم ولَّى هارباً، معتقداً أن صديقه سيموتُ، ويظفر هو بالغنيمة وحده.

عند الفجر، وصل بيته خائر القوى، وما إن فتح الكيس، متلهفاً للذهب حتّى خرج صديقه حزيناً، نافضاً ثيابه من التراب. فتلعثم مندهشاً:

- أنت سعيد؟ وين الذهب؟! فقال بحزنٍ وأسىً:

- أنا الذهب الخالص! الصديق ذهب حقيقي. كنتُ لكَ صديقاً وفيّاً، لكنكَ خذلتَ صداقتنا، وتركتني في غياهب البئر لتقتلني من أجل الذهب. ومع هذا، فأنا سعيدٌ، لأنك انكشفت لي. أنت لم تعد صديقي!

ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجه مصطفى، الذي قاوم سلطان النوم، حتى آخر كلمة من حكاية جعلته يتذكرُ بفخر أصدقاءه: ورداً وكريماً وفارساً، فهم ذهبٌ حقيقي، لن يحتاجَ إلى خريطة كنزٍ، أو بئرٍ وحبل؛ كي يختبرهم.

الملعقةُ تَحمي الكأسَ

لم يُصدِّق كريمٌ أنّه في بيته الآن، بعد مغامرة الصحراء. وأن اليوم مرَّ بخيرٍ وسلام. وقبل أن يحدِّثَ أهله بما حصل لهم، أخذت أخته الكبرى الحقيبةً نصف الممتلئة بالكمأة، واقترحت أن تؤجّل طبخها إلى الغد، فهي تعرف، أن لها طعماً يشبهُ اللحمَ، وتصلحُ وجبةً رئيسية للغداء.

ردَّ كريمٌ على هاتف ورد، الذي أراد أن يطمئنَ عن صحة مزاجه، فضحك بصوت عالٍ:

- مغامرة جميلة، أجمل ما فيها ماسورة (المي).

مع ضحكته دخلت أخته رشا، ووضعت صينية الشَّاي على الطاولة. وما إن صبته من الإبريق في إحدى الكؤوس، حتى انشرخت مصدرةً صوتاً مُطقطقاً. فارتسمت على وجه الأمِّ أمَارةُ غضب.

- هذه ثالثُ كأسٍ تُجهزين عليها في يومين!

- إنّها مشكلة تواجهنا كلَّ شتاءٍ يا أمي، ولستُ وحدي من يهدرُ الكؤوسَ، في هذا البيت.

لطّف الأبُ الأجواء، وبيّن أن غالبية الناس تعاني من هذه المشكلةَ في شتاء عمَّان الذي غدا بارداً، وكأنه طقسٌ أوروبي.

- لماذا تتكسرُ الكأسُ يا أبي؟! قال كريم، والحيرة تتسربُ مع

أنفاسه، ثم أضاف، وكأنه يعرفُ جواباً:

- مع أن الزجاجَ لا يتمدَّدُ ولا يتقلّصُ!

أختـه الكبـرى طلبت منه، وقـبل أن يعـرفَ السـبب أن يخبـرهم بحكاية ماسورة الماء. فضحك وأصـرَّ أن يعرف مشكلة الكؤوس، قبل أن يسرد عليهم بوصلة الماء والنار.

الأمُّ التي لم يهدأ غضبها، قالت بأنها للمرة الألف تشيـر على الجميع، أن يصبُّوا قليلاً من الشـاي السـاخن، فـي قعـر الكأس، ثم نحـرِّكه ونتـريَّثُ قليـلاً من الوقت، قـبل أن نملأها. فـيضـيف الأب الذي رفع كأساً فارغة:

- تتشـرخُ بسـبب التـمدُّد المفـاجئ في جـهتـهـا الداخليـة، التي تتعرَّضُ لحرارة الشايِ. وتزيدُ الأخت:

- فيما تبقى الطبقة الخارجية من الكأس على حالها، لأنها لم تتعرَّض للحرارة المباشرة. فيلمح كريم الفكرة:

- أي بسـبب التـفـاوت والاخـتـلاف في التـمـدُّدِ بين الطبـقـتين الداخلية والخارجية لزجاج الكأس، يحدث الشَّرخُ.

- علينا إذن أن نشتري كوؤساً رقيقة، فهي لا تتشرخ!

- تكرمي يا ابنتي. كلامك صـحيح، سيـمـا إن كانت من زجاج جيد، رديء التوصيل للحرارة!

وفي هـذه الأثناء تصبُّ الأم قليــلاً مـن الشــاي في الكؤوس، ثم تحـرِّكها، كي تنتـقلَ الحـرارةُ إلى الطبـقـة الخـارجيـة، لتتـسـاوى مع حرارة الطبقة الداخلية.

- طريقـتك صـحـيـحـةٌ يا زوجـتي العـزيزة، ولكنَّ النِّسـاء الروسيَّات، وأنتم تعرفون بردَ روسيا القارس، يضعن ملعقةً معدنيةً

صغيرةً في الكأس عند صبِّ الشاي.

رشا المبتسمة، التي تدرسُ الهندسةَ الصناعية، في الجامعة الهاشمية في الزرقاء، أكّدت أنها فكرة ذكية، فالملعقة ليست لتذويب السُّكر فقط، بل لتمتصَّ بسرعة كبيرة كميةً من حرارة الشاي، فتحمي الكأس من الشرخ. وهنا تقول الأم مبتسمة، وكأنها اكتشفت شيئاً خطيراً:

- ذكرتني بالامتصاص!

- لم أفهم قصدك يا أمي؟ فقال الأب ضاحكاً :

- تقصد أن عليكم تجنّب شربِ الشاي، لأنه يمنعُ امتصاص الحديد من الغذاء.

- بما أننا حُرمنا من الشَّاي، بسببِ امتصاص الحديد، فسأحدِّثكم قبل أن أنام، عن ماسورة امتصَّت الحرارةَ، ودلّت الشَّباب على اتجاه المدينة الصحيح. ثم قصَّ عليهم حكاية يومه الصحراوي من أوّله.

بالدفءِ نخرجُ السلحفاة

استيقظت الأم على ضجيج عمر المعتاد، فهو لا يتأخر بنومه في العطلة، عكسَ أيام المدرسة، التي يطيلُ فيها التمطي في الفراش.

عرفتْ أنه يعبثُ بصندوق العِدَّة، ورأته من وراء ستارة المطبخ يتسلّلُ إلى الحديقة، ليخرج السلحفاة (بَرَكة) من بيتها. وهي تعيش معهم، منذ سنوات، ويأنسون لوجودها.

في البداية، اعتقدت أنهُ سيلاعبها، كما يفعلُ دائماً. لكنها لمحت بيده كماشةً، فهرعت إليه. وكان يحاول أن يسحبَ رأس السلحفاة من صدفتها.

- ماذا تفعلُ أيّها المشاكس؟

- سأخرجُ رأسها؛ كي تلعب معي.

- وتخرجه بكماشتك المجنونة؟!

- وكيف أخرج رأسها العنيد إذن؟! وليس لديَّ شاكوشٌ، ولا إزميل.

- متى ستكفَّ عن شغبك؟ ومحبتك للأذى؟! أريدُكَ أن تستخدم لطفك لإخراج بركة من قوقعتها، يا أرقَّ عمر في العالم.

- حسناً يا أمي، سأضعُ قليلاً من الطَّعام، وأنتظرُ أن تتكرَّم الآنسة بالخروج.

جمعت الأمُّ بعضَ الحشائش والأغصان الجافَّة، وطلبت من عمر أن يجلب الولاعة من المطبخ، لتشعلَ ناراً صغيرة، على بعد متر واحد من السلحفاة المختبئة في صدفتها. في هذه الأثناء قعد في حضن أمه؛ لتلاعب شعره الطويل، كما يحبُّ، هامسةً في أذنه:

- بلغتَ العاشرة، وما زلت تنحشرُ بحجر أمِّك كالأطفال. فقال وهو يحتضنها:

- وسأظلُّ ألتصقُ بحضنك، حتّى لو صرتُ بعمر أبي، يا أحلى أمٍّ في الدنيا.

وما هي إلاّ دقائق معدودة، حتى رأى عمر ما أدهشه وأفرحه، فقد أخرجت السلحفاة بَرَكة رأسَها ببطء، واتجهت إلى النار تتلمَّسُ دفء حرارتها.

- أنت ذكية يا أمي! بدفئك أخرجتِ صديقتي.

- الدفء لا يخرجُ السلحفاة من صدفتها فقط. بل يخرجُ كلَّ الأشياء الجيدة، والجميلة من النفوس، فكلما كنتَ دافئاً، لطيفاً، محبّاً، اتجه النَّاس إليك، وتجمّع حولك أصدقاؤك.

وأضافت بأن أمها كانت تقول: الكلمةُ اللطيفةُ تخرجُ الأفعى من جُحرها. وبالطبع لم تعجب عمر حكاية أن الكلام اللطيف يستطيع أن يخرج الأفعى، ليس لأنه غيرَ مصدقٍ لكلام أمه، بل لرغبته أن تبقى في جحرها إلى يوم يبعثون.

- عليكَ أن تُراعي السلحفاة، ولا تُعابثها بالكمَّاشة.

كهرباءُ الفلفل

انشغل ورد بكتابة أحداث رحلة البارحة في دفتره الأحمر. نايا رسمت برقاً يضيء لوحتها، وعجزت أن تحاكي بالرسم صوت انفجاره القوي. أما عمر فانهمك مع بركة التي عاودت إخفاء رأسها، فعلى ما يبدو، أنّه أزعجها أكثر مما ينبغي.

على مائدة الفطور وجدت نايا أمها أعدَّتْ لها بيضاً مسلوقاً، ومربى القرع، وزيتاً وزعتراً، كما طلبت. أما الصحن الصغير، فترجرجَ بيد ورد، فاختلط فلفلُه بملحه.

انزعجتْ كثيراً. فهي لا تحبُّ الفلفلَ، الذي يسبِّبُ العُطاسَ، وتريدُ الملح وحده؛ لترشّه على البيضة. فشاكسها:

– انظري. إنّه امتزاجٌ جميل بين الأبيض والأسود. إنّها لوحةُ فنان! لكنها تذمرت أكثر؛ فقال أبوها:

– سمعتكِ تُفسِّرين رؤيتنا للبرق، قبل سماع الرَّعد، ليلةَ أمس. وسرَّني أنكِ تدركين أنَّ الضّوء أسرعُ من الصوت. ولهذا أريدك أن تستخدمي ذكاءك؛ لفصل الفلفلَ عن الملح.

رجتها الأمُّ أن تستغني عن الملح، فهو غير صحي، وكثرته تسبِّب ارتفاعاً في ضغط الدم. لكن عمر أصرَّ بخبث:

– هيّا أريدكِ أن تفردي عضلاتك الفكرية وذكاءك الجبّار، لفصل الفلفل عن الملح، وإلاّ حرمتك من طريقة جديدة؛ لإخراج

السلحفاة من صدفتها. فضحكت العائلة.

– أنا مثلاً، أستطيعُ فصله بالمنخل. أو بالماء، أي أذيبُ الملحَ، ليطفو الفلفل؛ فهو خفيف. فضحكوا ثانية. لكن نايا التي عصرت أفكارها، علَّها تجدُ طريقةً تنجزُ فيها هذا العمل الغريب، نهضتْ إلى المطبخ، وعادت بالملحة! فتناول ورد ملعقة بلاستيكية:

– يا أختي، الموشكة على البكاء. أنا سأفصلُ الفلفلَ بالكهرباء! ثم اقترب ودلكَ الملعقةَ بشعرها، لتكتسب شحنةً كهربائيةً. وحين قرَّبها من الصحن، انجذب الفلفلُ ملتصقاً بالملعقة كمغناطيس، وبقي الملح في مكانه فهو ثقيل.

– عليك أن تفتح مطعماً! هذا أفضل من رائد فضاء. راتبه أكثر!

المتسلِّقُ الهاربُ

كما اتفق مع والدته بعد الفطور، رتَّبَ ورد غرفته ومكتبته، وبدأ بتجليد كتبه وكتب أخويه، استعداداً للفصل الدراسي الثاني، لكنه لم يستمر في مهمته، بعد أن طلب عمر رأيه بما كتب، فاستمع إلى أخيه الذي تنحنحَ قبل أن يبدأ بقراءة قصته، التي وعدهم بإنجازها منذ شهرين.

أبرم الكلبُ مع القِطَّة اتفاقاً يجب فيه على الكلبِ، أن يعلِّمها السباحة مقابل أن تعلمه تسلق الأشجار. وشهد على هذا الاتفاق مجموعة من أهل الغابة، كان منها الأرنب، والثعلب الذي ابتسم ابتسامةً صفراء، وكأنه يخفي شيئاً.

ومن بين الحضور كان الفأر، الذي اقترب هامساً في أذنه الكلب؛ كي لا يتمَّ هذا الاتفاق. لكنه تجاهل نُصحه.

في صبيحة اليوم التالي، حضرت القطَّةُ في الموعد المحدَّد، وتلقّت تدريباتٍ مهمة في فنِّ السباحة، فالكلب سبّاح ماهر، ومعلم بارع، وما هي إلاّ أيام قليلة، حتى باتت تجيد السباحة بفضل صبره وإخلاصه.

وبعد استراحة قصيرة، جاء دور القطَّة، لتعلِّمه تسلُّق الأشجار، كما يقتضي الاتفاق، فهي محترفةٌ بهذه العملية الصّعبة. الكلب ومنذ الفجر، وقف منتظراً على أحرَّ من الجمر. وها نحن نقترب من الظهيرة، ولم تحضر هذه المحترمة بنت المحترمة! بحث عنها، في كلِّ مكان، ولكنها ما إن رأته يقتربُ حتى ولَّت هاربةً كصاروخ.

– أيّتـها الصـديقـة ألا تريدين إتمام الاتفـاق؟! لـكنهـا واصلت هربها.

ومن ذلك اليوم البعيد، تشكَّلت عداوةٌ بينهما، فأينما رأى كلبٌ قطةً لحق بها؛ لينال منها، وينتقم لخداعها القديم. ألا تلاحظون هذه الظاهرة؟

أثنى ورد على أخيه، وشجَّعه، ومدحَ لغته المختصرة ثم أضاف:

– ألا تشعر يا أخي، أن عدواة القطَّة والكلب، لا توجد إلا في قصتك؟! ألا تلاحظ الصداقة الحميمة بين قطتنا زبدة وكلب الجيران فلفل؟ وإنّنا مهما كهربنا الأجواء بينهما، وشحنَّاها بالتحريض لا ينفصلان! فضحكت نايا من بعيد.

– وألاحظُ أن زبدةَ لا يعجبها النوم إلا على رأس فلفل!

– فكيف تفسِّرُ قصتك؟

– تقوم قصتي على فكرة، أن الكلب يسبحُ بشكل جيد، وأن القطة تعلَّمت السباحة منه، في الأصل، لكنها لم تعلِّمه تسلّق الأشجار. وهنا يدخل الأبُ، فعلى ما يبدو سَمِعَ القصة والحوار.

– أنت رائع حوَّلتَ ملاحظةً عابرة يعرفُها الجميعُ، إلى حدثٍ ذي قيمة، يستحقُّ أن يُروى. وهي هنا العداوة التاريخية بين القطة والكلب. القصَّة بدت مقنعةً جداً بالنسبة لي، حتى ولو لم تكن حقيقية. وهي لا تخلو من التشويق، وتجعل القارئ يفكِّرُ بالحدث، ويبني ملاحظات عليه. ففرح بهذا الإطراء.

– فهل تسمح لنا، يا أستاذ عمر، بنشر قصّتك في ملحق (بيت بيوت) الأسبوعي المُخصّص للأطفال بجريدتنا؟ فوافق شرط أن تكون المكافأةُ المالية (محرزةً)، ذات قيمة، كقصّته تماماً.

آذانُ القططِ وملحُ الأرضِ

ما زال وردٌ يعتقدُ أن الشتاء يبقى كسيحاً، يسيرُ على كرسي مُدولب، إذا لم يتساقطُ الثلجُ، فهو روح الشتاء كما يقول جدّه. وها هي العطلة الشتوية توشكُ أن تنقضي بلا ثلج، ولهذا طار فرحاً، حينما قرأ في موقع إخباري، عن احتمالية هطوله فوق مرتفعات المملكة نهايةَ الأسبوع، فشعَّ الدفءُ في البيت، وتوقدت نفوسهم لملقى الضيف الجليل.

رجا عمر أباه، ألا ينتظروا الثلج في عمان، فهذا لا يعني إلا التَّمسمُرَ والانبطاحَ أمام التلفاز. بل عليهم، أن يهبّوا إلى ملاقاته في بيتهم العجلوني. ثم صدح مُموِّجاً يديه كقائد أوركسترا موسيقية:

- الثلج في عجلون أجملُ من أي مكان في العالم. جبال تعانقُ غيماً، وأشجارٌ تنحني احتراماً للجنرال الأبيض. وسهرة طويلة في بيت الجدِّ، ومدفأة تمنحنا أطيب فواكه الشتاء؛ (النَّار). وطبخات لذيذة بيد الجدَّة الغالية.

وافق الأب على اقتراحه، لكنه سيرجئ التنفيذ ريثما ينجزُ مهامه في الجريدة، ففي روح الأب توقٌ خفيٌّ، وشوقٌ قويٌّ، إلى هذا الأبيض؛ ولهذا، وما إن ركب سيارته متجهاً إلى عمله، حتَّى تذكَّر نفسه طفلاً، يلعبُ مع أصدقاء يتراشقون بكرات ثلج مرصوصة،

ويبتسم حينما يخطر في باله، أن بعض الأشقياء، كانوا يضعون فيها حجارة صغيرة قبل قذفها.

– كانوا أشراراً حقاً، لكنّهم طيبون! تمتمَ لنفسه باسماً.

ولأن الشَّمس كانت حامية، في هذا اليوم الشتائي، من أيام الشهر الأول للسنة، تذكّر أن الأردنيين، قبل أن تنتشر تنبؤات الطقس، كانوا يعرفون ببوصلة الغريزة أن في السَّماء ثلجاً مكتنزاً كقطن الوسائد. فعندما يكون قرصُ الشَّمس صافياً وحامياً، في يوم ذي بردٍ كيومنا هذا، فإنهم يتفاءلون بهذه الحالة التي يسمُّونها (الشمس المطرودة)، ويدركون أن الأمر لا بدَّ ويسفرُ عن وجبة ثلج مشبعة.

وتذكّر (آذان القطط)، وهي ندف الثلج، إذا هطل كبيراً. وكم كان يعجبه هذا التشبيه، الذي سمعه لأول مرة، حينما كان في السَّادسة، وصحا من نومه، فوجد الدنيا بيضاء، تهطلُ قطناً.

– ليستْ قطناً! إنها آذانُ القططِ. قال الجدُّ، وهو يحمله ليريه كامل المشهد من طرف الشبَّاك.

في ذلك الوقت تخيّل أن القطط الشريرة، هي التي أرسلت آذانها أولاً؛ لتسمع هسيسَ الفئران اللائذة في جحورها، في هذا البرد القارس، وتحدِّدَ مكانها قبل أن تنقضَّ عليها من شدة الجوع.

وتذكّر جده، الذي يقول في كل موسم، وهو ملفعٌ بعباءته الصُوفيّة وأمامه مدفأة الجمر:

– الثلج ملحُ الأرض! ولا تطيبُ الدنيا بلا ملح. وهم لم يأخذوا كلامه على محمل الجدِّ، فالثلج حلوٌ كحبة بوظة. لكنهم حين كبروا، عرفوا أن الأرض، ينقصُها هذا الأبيض البارد في كلِّ موسمٍ؛ كي

يقتل جراثيمها وحشراتها الضّارة، فالأرض لا تصحُّ إن لم يُطهِّرُها الثلجُ ويعقِّمُها من أمراضها: إنّه ملحُ الأرض.

وقبل وصوله الجريدة، وسَّعتْ ابتسامةٌ وجهه، لمّا تذكّر رجل الثلج الذي تعاون على نحته أطفالُ الحارة، بكل جدٍّ وكدٍّ، وكيف أنَّهم عندما جاعوا، تقاسموا جزرة أنفه، وبندورة فمه، وزيتونتي عينيه، وأكلوها بشهيَّة. وتمنَّى لأولاده أن يعيشوا طفولة بيضاء نقيّةً كثلجنا المُرتقب.

رجلُ الثلاجة

تعيشُ العائلة أجواء التحضير للثلج، حتى في تفكيرها. ولهذا قال ورد:

- خطر في بالي سؤالٌ افتراضيٌّ يشبهُ أحجيةَ أو لغزاً، وأحبُّ أن أشرككم في حلِّه.

- هاتِ ما عندك يا أخَ الذَّكاء!

- ماذا تنصحونَ رجلاً سُجِنَ في ثلاجة؟ وماذا تقترحون ليبقى حيَّاً قدرَ المستطاع؟!

صمت الأخوان متعجبين، من هذا السؤال الغريب. فتدخَّلت الأمُّ:

- يذكِّرني سؤالُكَ بالسلطان الذي كان يحكمُ على المذنبين بأكل نوع واحد من الطعام، يختارونه بأنفسهم.

- وهل أكلُ طعامٍ واحدٍ يؤدي إلى الموت؟! سألت نايا باستغراب. فأجاب عمر:

- أكيد. فأكلُ طعام واحد لا يوفِّرُ للجسم كلَّ مستلزمات الحياة ومتطلباتها، ولهذا يموتُ المحكوم عليه بعد فترة وجيزة. فتابعت الأمُّ:

- حتى جاء اليوم الذي اختار فيه أعرابيٌّ التمرَ، كأكلة يوميّة له، أو كعقابٍ يفضي إلى الموت. لكنّهُ لم يمت سريعاً، كما كان يتوقَّعُ

السلطان، مما أثار غضبه. وحين استفسر من علمائه؛ أفادوه بأن التّمرَ غذاءٌ كامل، ولهذا نجا الأعرابي من موت محقّق. فعفا عنه لذكائه، شرطَ ألا يخبرَ أحداً بسرِّ نجاته. فتمتمت نايا بامتنان:

– الحمد لله. لا يمرُّ عليَّ يومٌ بلا تمرٍ!

شكر ورد أمه على المعلومة الجديدة، وطالب بعدم التهرُّب من سؤاله الذي كرّره:

– مـــاذا ننصحُ الرّجلَ السَّجين في ثلاجة؟

– أنصحهُ بممارسة الرياضة، كي يبقى ساخناً! قال عمر بسخرية:

– وكأنك تريدُ أن تعجِّل موته. قالت الأم، ثم سألت بهدوء:

– ماذا نفعلُ عندما نأوي إلى فِراشنا في الليالي الباردة؟

– نحلم بشمس واسعة! وبزيتٍ وزعترٍ، وخبزٍ مُحمّص فوق المدفأة. قال عمر ضاحكاً.

– عندما ندخلُ فراشنا، نتكوَّرُ مثل القططِ! ألا تلاحظون زبدة على الكنبة مثل الكرة؟!

– صحيح. نتكوَّرُ لنحتفظَ بحرارتنا!

- الجسمُ الكرويُّ أقلُّ الأجسامِ فقداناً للطاقة والحرارة.

فصرخ عمر فرحاً:

- يوريكا! يوريكا!

- ما هي التي وجدتها يا أرخميدس؟!

- على رجل الثلاجة أن يتكوّر على نفسه!

- كي يحتفظَ بحرارته!

- لعلَّ التيارَ الكهربائي ينقطعُ وينقذُه من موتٍ محقّق.

- المهم ألا تنصحهُ بالركض، أو بالتمارين السويديَّة، فهذا يبدِّدُ حرارتهُ، ويعجِّلُ موته.

يوريكا ذهب التَّاج

قصّت نايا على أبيها ما حدث في يومها كعادتها. وحدَّثته عن الرجل الذي أنقذهُ التَّمرُ. وعن سبب تكوّر القطط في الشتاء، ونصيحتنا لرجل محكوم عليه بالموت برداً في ثلاجة، وقالت بأن عمر صرخ فَرِحاً: يوريكا، يوريكا، لكنّها لم تفهم هذه الكلمة الغريبة.

– هل تعرفون من القائل الأول لهذه الكلمة الشهيرة؟

– صرخها العالم اليوناني الشهير أرخميدس، وهو يخرجُ عارياً فرحانَ من حمَّام عام، لمَّا اكتشف قوَّةَ الطفوِ، أي القوة التي ترفعُ الأجسامَ المغمورةَ في سائل.

– معلوماتك ثريةٌ يا ورد.

عندما أراد الملك (هيرون) صنعَ تاج، أوكل المهمَّة إلى صائغ ماهر، بعد أن سلَّمه وزناً معلوماً من الذهب الخالص. وفي الموعد المحدَّد تسلَّم الملكُ تاجه، فأعجب بمهارة الصناعة، ودقّة التنفيذ؛ إلا أن شكّاً انتابه، من أن الصائغ سرق جزءاً من الذهب، وخلطه بالفضَّة؛ ليحافظ على الوزن، ويخبِّئ فعلته الشنيعة.

عندها التفتَ الملكُ إلى فيلسوفه المُقرّب أرخميدس (تُوفي 212 ق.م)، وطالبه بطريقة يمكن بواسطتها معرفة الحقيقة.

هيمنت القضية على تفكير أرخميدس فقلَّب الأمر في رأسه

يمنةً ويُسرةً؛ فهو يعرفُ كثافةَ الذهب الخالص، وهي الوزنُ مقسومٌ على وحدة الحجوم، ولو أنه استطاع، أن يقيس حجم التاج؛ لسهلت المهمّة، ولعرف في الحال، إذا ما كان التَّاجُ ذهباً خالصاً، أم كان مخلوطاً بالفضة.

ولكن ما من وسيلةٍ لقياسِ حجمِ التاج، بكل ما فيه من تعرجاتٍ فنيَّة، وأنماط هندسية متداخلة، ولو كان بإمكانه أن يصهره، وتحديد حجم سائله بواسطة وعاء معروف الحجم، لانتهت العملية، ولعرفَ السِّرَّ. لكنَّ صَهْرَ التَّاج، سيغضبُ الملكَ بكل تأكيد.

ولو كان بإمكانه أن يدقَّهُ بمطرقة حتى يتحولَ إلى قالب مستطيل؛ لأمكنه معرفة الحجم، ولانتهى الإشكالُ أيضاً. ولكنَّ الملك لن يكون سعيداً بتحطيم تاجه! فتدخّل عمر:

- كان على الملك أن يسجنَ الصائغَ في ثلاجة؛ حتى يعترف بفعلته النكراء، بدل أن يقلبَ حياة أرخميدس رأساً على عقب.

فردت نايا:

- الثلاجة لم تكن مخترعة يا فالح! فهذا الكلام حدث قبل ميلاد المسيح عليه السلام. فتابع الأب مبتسماً:

- لستُ مع التعذيب بسجن الثلاجة أو غيرها! فالعلم قادر على معرفة الحقيقة وكشفها!. فوافق الأولاد على رأي أبيهم، وطالبوه أن يعود إلى موضوع التاج:

- أصبحت القضية شغل أرخميدس الشاغل، وهماً يلازمه. وبينما هو في الحمام، لاحظ أنه كلما أنزل جسمه في الحوض؛ ارتفع الماء أكثر فأكثر؛ أي أن جسمه حلَّ محلَّ جزءٍ من ماء الحوض المزاح.

- كم تعجبني هذه اللعبة!

وفجأة بَرَقَ أمام ناظريه حلٌّ لمشكلة التاج؛ فقفز فرحاً، واندفع في شوارع المدينة ناسياً أنه عارٍ.

- يوريكا! يوريكا! أي وجدتها وجدتها، باللغة اليونانية.

ابتسم الأولاد، فأضاف الأبُ بهدوء:

- أدرك أرخميدس أن حجم الماءِ المُزاح، في حوض الحمَّام يساوي حجمَ الجزء المغمور من جسمه، ولهذا أحضر كتلة من الذهب، وأخرى من الفضة، وجعل وزن كل منهما مساوياً لوزن التاج، ثم غمر كلاً من (الذهب، والفضة، والتاج) في إناء مملوء بالماء، وجمع المزاح منه، وقاس حجمه في الحالات الثلاث. فتدخل عمر:

- في العام الماضي قاست المُعلمة لنا حجمَ حجرٍ بطريقة الماء المُزاح. إنها بسيطة. فقال ورد:

- بسيطة الآن، لكنها لم تكن معروفةً من قبل. أي أن أرخميدس اخترع هذه الطريقة، التي لم يسبقه إليها أحد. فتابع الأب:

- وجد أن كمية الماء التي أزاحها التاج، أكبر من الكمية التي أزاحتها كتلة الذهب الخالص، وأقل من كمية الماء التي أزاحتها قطعة الفضة. فيكمل ورد:

- هذا يشير إلى أن التاج لم يكن مصنوعاً من الذهب الخالص، ولا من الفضة النقيَّة، ولكنه كان خليطاً منهما. ويضيف عمر:

- فضح أرخميدس الصائغ الغشَّاش، وربما حكم عليه الملك

بأكل (البرغر) ثلاثَ مراتٍ يوميّاً. فضحكت العائلة.

- لا يُهمُّنا ما مصيرُ الصائغ. ويهمُّ العلم والعالم، أن البحث والجهد والتقصّي هي الأشياء التي تبقى، وتثمر، وتمكث في الأرض، وتفيدُ الناس! فصاح الأولاد:

- يوريكا! يوريكا!

حمامةُ عمَّان

قبل غروبِ شمس ذلك اليوم الحامية، على غير عادتها، في شهر بارد، توجه الأبُ يرافقه عمر إلى السوق التجارية الكبيرة (المول)؛ لشراء بعض حاجات البيت.

وفيما كانت السيارات تتباطأ، بسبب الزِّحام، على جسر مستشفى الجامعة الأردنية، تسارعت رايةُ عمّان بخفقانها ورفرفتها، فلفتت انتباه عمر:

- وجدتُ يا بابا على موقع أمانة عمّان علماً لونه أخضر، واسم عمان مكتوب عليه بشكل أقواس أثرية.

- تلك رايتها القديمة. فمن المهمِّ، أن يكون لكلِّ مدينة شعارٌ، ورايةٌ، وأحياناً نشيدٌ خاصٌ. وها هي راية عمان الجديدة بيضاء بجبال ملونة. أعتقد أنها أجمل.

- جميلة! ولكن لماذا كلُّ جبل بلون؟ والبيوت متدرجة بهذا الشكل؟ ولماذا كتبوا عمّان بهذا الخطِّ؟ ولماذا وضعوا طائراً فوق ميم عمّان بدلَ الشدَّة؟!

- كل هذا الأسئلة تريدُ لها جواباً يا صديقي؟!

- أنا أعرف أن الطائر فوق حرف الميم هو حمامة. لأن عمان مدينة سلام.

- عمّان جبل ووادٍ. سماءٌ وماءٌ، منذ آلاف السنين، ففي منطقة

عين غزال. وأنت تعرفها؟! فهزَّ عمر رأسه، وقال إنّها على طريق عمّان الزرقاء، نهايةَ شارع الشهيد.

- في عين غزال، عاش الإنسان قبل تسعة آلاف سنة، وقد وجدوا آثاراً وتماثيلَ تدلُّ على ذلك الزمن السحيق. فيستهجن عمرُ عمرَ مدينته!

- أما بياض الرايةُ فدلالة على نقاء وصفاء المدينة. وجبالها مختلفة الألوان، لأن سكانها من أعراق وأصول ودماء وديانات مختلفة، ولكنهم كانوا منسجمين دوماً، تماماً كألوان الجبال في الرَّاية. فهي تعطينا فكرةَ أن سكان عمان، رغم اختلافهم، كانوا متناغمين. وأضاف الأب، وهو يركنُ السيارة في باحة المول.

- المباني على جبال الراية، تعطينا صورة واضحة عن رسوخ الحياة في عمَّان.

- شكراً بابا. ويعجبني أكثر الخطُّ الذي كُتبت به كلمةُ عمّان.

- هذا خطٌّ عصري جديد، لأن عمان مدينة متجدّدة، ذات روح شبابية، قابلة للحياة مُقبلة عليها.

- وهي عمّون عاصمة أجدادنا العمونيين.

- صحيح. وكذلك سُمِّيت فيلادلفيا، أي مدينة الحب الأخوي، وهي منذ فجر التاريخ مدينة للسلام والمحبة والأمن، وستبقى بإذن الله.

- هي مدينتي المحبوبة!

لوحة الحياة

قبل خروجه، طلب الأب من نايا أن ترسم لوحةً تلائمُ قصّةَ ستُنشر في (بيت بيوت). وكعادتها عندما تريد أن ترسم شيئاً، قرأت النصَّ بطريقة مسرحيّة؛ لتعيشَ أجواءه.

في علبة ألوان على سطح طاولة، تشاجر اللونان: الأحمرُ والأصفرُ، فكلٌّ يدَّعي أنّهُ الأجملُ، والأبهى، والأحلى.

- أنا لونُ الورد، وشفقُ الشَّمس!

- أنا الشَّمسُ نفسها! أنا الذهب، وسنابلُ قمح تعمرُ بالخيرات. وعندما علا ضجيجهما، تدخّل الأخضرُ رافعاً يده بمهابة:

- أيّها السادة الكرام. أنا أجملكم جميعاً، أنا لون الطبيعة حين يمتدُّ بساطُ الربيع زاهياً. فضحك الأزرق ساخراً:

- لا بدَّ أنكم نسيتم سيدكم الأعلى! إنهُ أنا، سيدُ الألوان، وأكثرها شيوعاً، فيكفي أنني السماء العالية. أنا سيِّدُ الألوان كلها!

- صحت فرشاةُ الألوان، وتثاءبت بمطٍّ يديها عالياً:

- ما هذا الضجيج يا أصدقاء؟ أنتم لا تكفون عن الشِّجار أبداً! ألا يستطيعُ الواحدُ أن ينام في هذه العلبة بسلام؟! ماذا جرى يا أحمر؟! ويا أصفر؟! أنتما في كلِّ يوم تثيران شِجاراً له أول، وليس له آخر. فردَّ الأحمر غاضباً، بأنه لا يثيرُ شِجاراً، وهو أجمل

لون عـرفـتـه الـطـبـيـعـة، فهـو الوردة. وهل هـناك أجـمل من الوردة؟!
هاه؟!

– أيهـا الأصـدقـاء، لماذا لا ينظـرُ الواحـدُ فيكم، إلاّ إلى نفـسـه فقط؟! أريد منكم أن تتخيَّلوا الحـياة، دون البـرتقـالـي مـثـلاً، أو بلا نقــاء الأبيض، الـذي هو أصل الألوان، أو بـلا هـدوء البنفــســجي، وسـحـر الوردي، وقوة الأسـود؟! أريدكم أن تتخيَّلوا الدنيـا دون أزرق، أو أحـمــر، أو أصـفــر، أو بدون اللـون الأخـضــر والوردي. فـصــمت الجميع، وتابعت الفرشاة:

– أنتم جميعاً، وبلا استثناء، تشكِّلونَ لوحةَ الحياةِ، أنتم جميلون ورائعـون، وتسـتطيعـون حين تمتـزجـون على الورق، أو القـمـاش، أن تشكِّلوا أجملَ اللوحات. فهيّا إلى العمل بلا شغب!

وما إن أكملت قراءة القصّة، حتى لمعت فكرةُ اللوحة في رأسها، فصاحت.

– يوريكا! يوريكا. فضحكت الأم من المطبخ:

– هاه. ماذا وجدت نايا؟!

– الطريقة التي سأرسمُ بها القصَّة.

شتاءٌ أبدي

تأخرتِ العائلةُ بالانطلاق إلى السينما، فنايا لم تكمل رسمتها، وهي لا تتركُ شيئاً في منتصفه، حتى لو سهرت إلى الفجر، أو أخَّرت الجميع.

– ستعرفُ يا بابا أنَّ هذه اللوحة، ستكون أجمل ما في بيت بيوت.

– بل أجمل ما في الجريدة! قالها وهو يداعبُ خصلات شعرها.

وعد الأبُ العائلة بدعوتهم لحضور فيلم (فروزن) الكارتوني الجديد، خلال هذه العطلة. لكنَّ ظروف العمل، تتدخّلُ لتؤجِّلَ الموعدَ، حتى أتيحت الفرصة الليلة، رغم أن الأجواء تغيّرت بعد الغروب، فتلبَّدت السَّماءُ بالغيوم الداكنة، وازدادت البرودة، وهو أمر جعل الأم تحثُّ أبناءها على تثقيل ألبستهم.

– ولا تنسوا معاطفكم وأوشحتكم يا شباب!

أصرَّت نايا على معطفها الزهري، وليس الأسود الذي جهزته أمُّها. لكنها نسيت أين تركته؟ فانشغلت العائلةُ بالبحث عنه، حتى تذكَّر عمرُ بأنهُ في السيَّارة.

أراد الأبُّ أن يزيدَ من سرعة السيَّارة، فطلبت منه الأم أن يتمهّل؛ كي يصلوا بسرعة! فتعجَّب الأولاد من تناقض العبارة.

– أمُّكم تقولُ الحقيقة! السرعة قد تسبِّب حادثاً، لا سمح الله، يؤخِرُ وصولنا.

(Frozen) من أفلام الرسوم المتحركة (Animation)، أنتجته شركة (والت ديزني) هذا العام 2013. مأخوذ عن قصَّة ملكة الثلج للكاتب الدانماركي (هانس كريستيان أندرسون). هكذا قرأ ورد من (الآي باد)، بينما السيَّارة تمشي الهوينى في شارع المدينة المنورة الذي يغصُّ بالسيارات.

– لماذا يتهافتُ الناسُ على المخابزِ كلما شمّوا رائحة الثلج؟!

– للأسف. يبدو أن كلَّ واحد منّا يفكِّرُ بنفسه فقط، وإلا لماذا نشتري أكثر من حاجتنا خبزاً؟!

– هل أكملُ؟ أم أصمت؟! سأل ورد. فطلبوا منه المتابعة.

الفيلم من إخراج (كريس باك)، وبمساعدة كاتبة السيناريو (جينيفير لي)، التي تعدُّ أول كاتبة تتحول إلى مخرجة في عالم ديزني. وقامت الممثلة (كرستين بيل) بتأدية صوت البطلة (آن)، المتحرّرة من خوفها، لتخوض مغامرةً؛ وتنقذ المملكة من شتاء أبديٍّ. فاحتجَّ عمر.

– أرجوك يا أخي كفى! لا تفسد علينا السهرة. أنا لا أحبُّ أن أعرف شيئاً عن أي فيلم لم أحضره بعد.

كانت الصالة بحراً عميقاً عندما دخلتها العائلةُ. فبكت نايا التي لا تحبُّ الظلمةَ، والتصقت بأبيها:

– لم أعد أرى شيئاً. فقدتُ بصري!

هدَّأ الوالدُ من روعها، وضمَّها بحنان؛ ليمتصَّ خوفها، ونصحها بفتح عينيها، على كلٍّ سعتهما، فعمّا قريبٍ ستتبدّدُ الظلمةُ، وتعود

إليك الرؤية ثانية يا جميلتي.

في هذه الأثناء يجيءُ عاملٌ بمصباح يدوي يبعثُ ضوءً خافتاً؛ ليرشدَ العائلةَ إلى مقاعدهم بكل صمت، كي لا يؤثروا على الآخرين. ولم يغادر حتى تأكّد أنهم أخذوا أماكنهم.

شعرت نايا بالراحة حينما تلاشت الظلمة من حولها: رويداً رويداً، فصارت ترى المنسجمين مع أحداث الفيلم، ثم نظرت إلى وجه أبيها؛ فرأت المشاهد تنعكسُ عن نظارتيه، فتمتمت فرحةً:

- الحمدُ لله. استعدتُ بصري.

بؤبؤُ العين

توخّى الأب الحذر في رحلة العودة، وقاد مركبته بأقصى درجات الحيطةِ فالثلجُ باغتهم، وهطل مشكِّلاً طبقةً سميكةً، أحدثت فيها عجلات السيارات مساراتٍ وشقوقاً، تشبهُ أثلام الأرض المحروثة. فهتفت نايا:

- إنها تشبه الخطوط التي صنعها المحراث بأرضنا حينما زرعنا القمح. هل تذكرون؟! فحمد الأبُّ الربَّ، على نعمة الثلج والمطر، وتمنّى أن ينمو قمحُهم، ثم تمهّل بالسواقة؛ كي لا يضطر للفرملة، التي لا تعني إلا الانزلاقات وحوادثها.

ورغم محبةِ الأولاد للثلج، إلا أنَّهم لم يفرحوا به، بل حزنوا، فقد كانوا تواقين أن تثلج وهم في عجلون. فتناقشوا في قوّة الفيلم، وجمالياته، وفكرته، وكيف انتصر الخيرُ على الشرِّ. الأم لم يعجبها بتاتاً، كونهُ لا يخرجُ عن الإطار التقليدي لأفلام ديزني السابقة.

- أين الجديد في هذا الفيلم؟!

نايا أحبت (آن). وتمنّت أن ترقصَ رقصتها على الثلج، وأن تكون قويَّةً مثلها. لكنها لم تناقش الفيلم، بل استفسرت عمّا حدثَ حالَ دخولهم إلى السينما.

- من سرق بصري مني؟!

حين وصلوا البيتَ، حملها الأبُّ، ودخل غرفتها مباشرةً، دون أن يُشعلَ الأنوارَ، فخافت نايا، فطلب منها أن تصبر؛ حتى يتسعَ بؤبؤا عينيها، ويجمعا الضوء القليل، لترى الأشياء.

– انظري. هذه خزانتك بدأت بالظهور، وكتبك، وتلك دميتك الحمراء. أترينها؟ إنها تتضحُ شيئاً فشيئاً. والظاهر أنَّ أحدهم رماها أرضاً! فهزت رأسها، وهي تحضنُ أباها خوفاً.

– صحيح. وخزانتي أوضح الآن، وهناك لوحتي عن الألون المتشاجرة، تبدو أجمل في النّور الخافت. فابتسم الأب، وأشعل ضوء الغرفة:

– في العتمة تبدأُ حدقةُ العين، أي بؤبؤها بالتوسُّع التدريجي؛ لجمع أكبر كمية ضوء، وهكذا تتضحُ الرؤية ببطء. فقالَ عمر الذي تسلّلَ مع أخيه:

– ولأن طائر البومة لا يخرجُ إلا ليلاً. لهذا كانت عيناه واسعتين لتجمعا أكبرَ كميةٍ من الضوء لتتحقق الرؤية. وأضاف ورد:

– وبالطريقة ذاتها يستطيعُ الطبيبُ، أن يتأكَّدَ من وفاة إنسان ما. أليس كذلك يا أبي؟ أنا شاهدت هذا في أكثر من مسلسل!

– صحيح علميّاً، فالطبيبُ يفتحُ العينَ، ويسلِّطُ فيها مصباحاً كهربائياً، فإذا ضاقَ البؤبؤُ مُنكمشاً، فهذا دليل على أن الإنسان حيٌّ، ويستجيبُ للمؤثرات الخارجية، وللعلم فتوسُّعُ البؤبؤ وتضيقه، من الحركات اللإرادية، في جسم الإنسان، كحركتي الأمعاَء الدقيقة والغليظة، أو التنفس، أو نبض القلب.

– يعني تستطيعُ أن تكشفَ كلَّ من يتماوت بمصباح صغير!

– دعونا من التماوت الآن. أريدُ أن أسال أبي: هل كنتَ تخافُ عتمة السينما؟

– أبداً، ليس لأني شجاعٌ فقط. بل كنّا ندخلُ قبل بداية الفيلم بساعةٍ أو ساعتين على الأقل. ولم نكن نتأخر كحضراتكم أيها السَّادةُ الكرامُ.

بالملحِ نصهرُ الثلجَ

الثلجُ يلفُّ عمّان لفَّ الأمِّ لطفلها الوليد. كانت هادئةً على غير عادتها: لا أصوات للسيارات، ولا ضجيج للجيران، ولا باعة جوّالين. حتى العصافير التي تقيم أفراحها الصباحيّة، فوق شجرة الحور العارية من الأوراق. لا زقزقة لها أبداً.

- أين تلوذ العصافير المسكينة في الثلج؟! سؤالٌ خَطَرَ بحزنٍ في نفس الأمِّ، التي كانت أوّل المستيقظين، وهي تدخلُ غرفةً الأولاد.

- وصل الجنرال!

هرع ورد إلى الشبَّاك وأزاح ستارته، وهو يفركُ عينيه، فإذا الدنيا بيضاء كشق اللفت، أو قرص جبنة. ففرح حامداً الله، على هذه النعمة الجزيلة. لكنَّ موجةَ غضبٍ انتابت عمر الذي لا يحبُّ ثلج عمان. فاستكان بفراشه حتى موعد الإفطار.

التلفاز لا يعملُ. فالثلج يغطي صحن الستالايت، ويمنع وصول الإشارة من الأقمار الصناعية. فاستمعت العائلة لإذاعة محليّة، أعلنت عن عطلة بسبب الحالةِ الجوية. فهتفت نايا فرحاً:

- أمّي ستبقى معنا اليومَ.

لم يغادر الأبُ، رغم حاجته المُلحّة لوصول الجريدة، فالشوارع مغلقة والهطول مستمر. فتدثر ورد بمعطفه وقبعته، وصعد إلى

سطح البيت. سرح ببصره في كل جهات المدى. عمان كانت قصيدةً.

انحنت أشجار لزاب الجامعة الأردنية بتواضع هادئ رزين. وظلت شجرة السرو في حديقة الجيران شامخةً لم يعلق بها ثلجٌ، فهي عمودية تشقُّ الفضاء كصاروخ. إنها لا تعجبه. تبدو مغرورة جداً!

أزاح الثلج عن صحن الستالايت، وعاد بعد أن تركت قدماه آثاراً عميقةً على شرشف البياض الطريِّ، الذي يثيرُ في القدمين لذةً تساوي المشي على الرِّمال.

- بودّي لو أجرب المشي حافياً عليه!

ابتهج أخواه؛ فالصورةُ لم تعد تتكسر، أو تترجرجُ، أو تختفي؛ ولهذا استمتعوا بقناتهم المفضّلة. ترك الأب الكتاب من يده، طالباً أن يمنحوه دقيقتين.

- خلونا نشوف شو صار بالدنيا.

- لا جديد فيها. تتجمد الأخبار في الثلج، قال عمر ممازحاً أباه:

فرحت نايا في سرِّها، أن الثلج لم يأتِ أيام الدوام، فهي لا تحبُّ العطلةَ أبداً، وتنتظرُ بفارغ الصبر عودتها إلى المدرسة.

تكسَّرت صورة التلفاز من جديد، ولا سبيلَ إلا أن يصعد أحدهم إلى سطح البيت، ويكشطَ الثلج عن الصحن. وهكذا فعل عمر، لكنه ما إن عاد، حتى تكسرت من جديد، فالهطول مستمر، ولهذا فمن غير المجدي الاستمرار بهذا الفعل. فدخل ورد إلى المطبخ متمتماً:

- لديَّ فكرةٌ!

وخرجَ ومعه فرشاة وزيت. وبعد تنظيف الصحن من الثلج، طلاه بالزيت، لينزلق عنه الثلج بسهولة فلا يتراكم. لكن الفرحة لم تدم، فبعد بضع دقائق تكسرت الصورة من جديد. فيبدو أن الزيت لا يعملُ مع درجات الحرارة المتدنية وتزداد لزوجتَهُ.

أكّد عمر أنَّه سيخترعُ صحناً للستالات يصهرُ الثلج بنفسه، فابتسمت الأمُّ، وطلبت منه، أن يوضّحَ فكرةَ هذا الاختراع الذكي، الذي سيبيعُ منه بملايين الدنانير، إن أنجزه في هذه الأيام.

- بسيطة، سأجعل في صحن الستالايت سلكاً كسلكَ المدفأة الكهربائية، وعندما تثلجُ الدنيا، نشغّلُ الكهرباءَ، فيسخّن الثلج ويذيبه، لنحصل على صورة لا تتكسر. فابتسم الأب إعجاباً بهذه الفكرة.

- نحن نريد حلاً عاجلاً للمشكلة. قالها ورد، وفي نفسهِ بعضُ الغيرة من فكرة أخيه، ثم أضاف:

- لا نريد أن ننتظر ذكاءك سنةً أو سنتين، أو قرنين، كي تنجز لنا اختراعك العظيم. ثم إنكَ أخطأتَ بقولك: (يذوب) الثلج.

- وماذا تريدني أن أقول يا أستاذ؟! ردّ بتهكُّمٍ.

- ينصهرُ الثلج.

- هذا ليس مهمّاً. المهمُّ أن نتغلبَ على المشكلة!

نهض ورد ودخل المطبخ ثم صعد إلى السطح، ومعه علبة ملح، رشَّ منها كمية كبيرة على الصّحن، بعد كشطه.

كان عمر فرحاً بعودة الصورة بلا كسور، وفرحاً أكثر بذكاء أخيه، حينما وضّح لهم:

– الملح أقوى من الجرَّافات! فإذا رششناه في الطرقات، فسنسارعُ بانصهار الثلج، ونحولُ دونَ تراكمه. عندها تمنّى عمر أن يملِّحوا شارع الأردن؛ كي تسهل رحلتهم إلى عجلون سيدة الثلج جميلة الجميلات.

كان الأب فرحاً أيضاً، ليس بمشاهدة بعض الأخبار، بل بذكاء أبنائه وفطنتهم. وفي هذه الأثناء رنَّ هاتف كريم طالباً من ورد طريقةً لوقف تكسر صورة التلفاز.

– الملحُ يحمي الصورة. قالها بمرح. ثم شرح لصديقه بالتفصيل كيف تغلب على تراكم ثلج الستالايت.

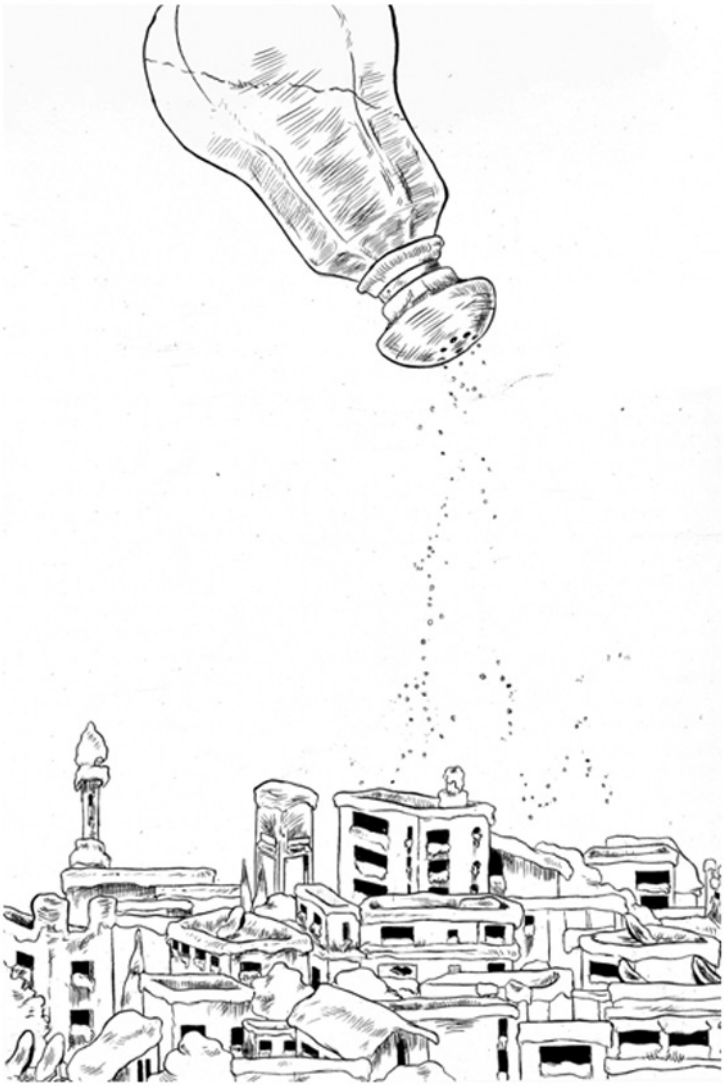

حذاء الطريق

كتب كريم على صفحة الصف الثامن في (فيس بوك).

- إليكم آخر ابتكارات صديقنا ورد في معالجة تكسّر صورة التلفاز: ملِّحوا صحون الستالايت!

وكان كريم بعد أن هَاتَفَ ورداً، أخذ ملحاً، وصعد سطح العمارة. فرأى عمان ترفلُ بثوبها الأبيض. وكان كلُّ شيء ساكناً، إلا حمامة تلوذُ جوارَ السُّورِ، فتمنَّى لو يستضيفها في بيتهم، لكنَّها طارت فزعةً، ما إن اقترب منها.

كشط الثلجَ، ورشَّ الملح بسرعة، قبل أن ينزلَ مرتعشاً برداً. وحين نجحت الفكرة، فرحت العائلةُ، التي تتابعُ مسلسلاً يومياً، وتكسُّر الصورةِ، كان يعكِّرُ مزاجَهم. ولهذا قال الأب، بعد انتهاء المسلسل:

- أعجبتني فكرة تمليح الصحن، فهي وليدةُ الحاجة.

- الحاجةُ أمُّ الاختراع!

- الحاجة دفعت الإنسان إلى التفكير والبحث عن حلول لمشاكل تواجه حياته. وسرد لهم قصةً يحفظُها من زمن طفولته:

كان النَّاس في العصور القديمة يمشون بلا أحذية، فهي لم تكن مخترعةً بعد. وذات يوم خرجَ السلطانُ حافياً في طرقاتٍ وعرةٍ وصعبةٍ؛ ليتفقَّد أحوالَ رعيته. ومعه وزراؤه ومستشاروه، وهم حفاة

أيضاً. وفي كلِّ حين كان السلطانُ يقفُ متعرقاً لاهثاً.

– هدَّنا التعبُ، ونال منّا كلَّ منالٍ.

وحين عاد لقصره متورمَ القدمين، صرخ في وزيره:

– أريدُ أن تفرشوا طرقات السلطنة بالجلد. فتدخّل واحدٌ من المستشارين بصوت خفيض:

– فكرة طيبة يا مولاي! فالجلدُ سيحمي قدميك من الحصى والأشواك. لكن الوزير الذكي أجاب بثقة.

– فكرتك حكيمة يا مولاي، ولكنّها غير قابلة للتطبيق. فغضبَ السلطانُ:

– ماذا تقول أيها الوزير؟ هل ترفضُ تنفيذَ الأوامر؟!

– سامحني على صراحتي يا مولاي، فتمهيدُ الطرقاتِ يتطلّبُ كميات كبيرة من الجلود، وبهذا سنقضي على كل الأغنام والأبقار، وهي غذاؤنا ومصدر دخلنا وثروتنا. فصمت السلطان قليلاً:

– صدقتَ أيها الوزيرُ. أنا لا أريدُ لشعبي أن يموت جوعاً!

لكن الوزير الذي استغرق في التفكير مرةً أخرى ابتسم ابتسامة واسعة:

– لديَّ حلٌّ رخيصٌ يا مولاي! فبدلَ أن نُمهِّدَ كلَّ طرقاتِ البلاد بالجلد، لماذا لا نجعل الجلدَ يرافقُ قدميك؟ أينما مشيت؟!

فصمت السلطان متخيّلاً المشهدَ، ثم قال بنبرة حادة:

– لم أفهم ما تقصده؟!

– سألصقُ قطعتي جلدٍ بقدميك، وبهذا، فكأنك تسيرُ على طرقات من الجلد دائماً!

ومن ذلك اليوم عرف الإنسان الحذاء. فسُرَّ الأولادُ لذكاء

الوزير، وحـمـدوا الله، أنه اهتـدى إلى تلك الطريقـة، وإلا لكانت الشـوارع الآن مُـمـهّـدةً بالجلد، على فـرض أن الأغنام والأبقـار لم تنقرض بعد.

كتب كريم القصةَ على (فيس بوك) تعميماً للفائدة.

قمحٌ وشطرنج

كانت أجواءُ الصّمت تخيّمُ على الأسرة التي أُخرسَ تلفازُها، ليس لأن الثلج كسَّر صورته، بل لأن ورداً وأخيه يخوضان معركةً طاحنةً بكلِّ هدوء. فالأب يقول دائماً لأبنائه عندما يلعبون الشطرنج.

– ادفن أعصابك في فراش من الثلج. كُن باردَ الأعصاب! فلا ينفعُ التوترُ مع هذه اللعبة الصامتة. عليك أن تلبس عدوانية الضواري والأسود. كُن وحشاً كاسراً. كُن قوياً وهادئاً، فإذا فقدت هدوءك؛ هلكت، وإن فكّرت بالهزيمة؛ هُزمتَ!

وكان الأبُ يقولُ لزوجته وهما يلعبان:

– أربعة وستون مربعاً، بلونين مختلفين، هي ثنائية الحياةِ والموت، أو الحبِّ والكُرهِ. الخير والشرِّ. هذه اللعبة تختصرُ العالم بمعاركه وحروبه، وتستعرُ ناراً بين اثنين فوق الطاولة. فترد عليه:

– لا تكن قاسياً يا رسيلي. الشطرنج هي اللعبة الوحيدة التي لا يُسمَّى فيها مقابلك خصماً، بل (رسيلاً)، لأنه يراسلكَ الأفكارَ ويشاركك المتعة.

– صدقتِ. ومتعةَ الشطرنج لا ينالها إلاّ من أبحر ببوصلة الرغبة، ووزَّع روحه وجوارحه فوق قطعها، وتمركز في كل حجر من أحجارها، واستغرق بكلِّ فكره في هذا العالم الصغير الكبير!

ويتذكّرُ الأولاد ما سردهُ الأبُ عن تاريخ الشطرنج ومعناها.

- ينسبُ البعضُ اللعبة إلى النبي سليمان عليه السلام، ولكنها على الأرجح اختراع هندي. طلبها الملك الحكيم (شيرهام) من وزيره؛ لتكونَ بديلاً من معارك الدماء، وفيصلاً في الخلافات. فإذا تنازع اثنان على قطعة أرض، أو بيت، لا يتقاتلان بالسيوف والخناجر أو بالحجارة أو المصارعة والشجار وعلو الصوت، إنما يلعبان الشطرنج. وللغالب ما أراد. يومها تدخَّل عمر:

- يعني البقاء للأذكى، وليس للأقوى! فيهزُّ الأبُ رأسه موافقاً ويتابعُ، بأن الملك شيرهام، أراد لعبةً لا يكونُ فيها للإنسان إلاّ ما سعى، وفكَّر، وخطَّط، وعمل، وربما جاءت رداً على لعبة (النرد) الفارسيّة المعروفة بطاولة الزهر، التي لا يحركها إلاّ الحظُّ. فيقول ورد:

- طاولةُ الزهر لا تُشغِّلُ عقولنا! ولكنّها تعلِّمنا كيف ندبرُ ونستغلُ حظوظنا. فيوافقُ الأب، على رأي ابنه باسماً، ويكملُ، بأن الوزير العبقري، مخترعَ الشطرنج، تحرّج من طلب المكافأة، لكنَّ الملك أصرَّ أن يطلب ما يريد، فقال بخجل:

- أريدُ حبةَ قمح! فضحك الملكُ من سذاجة وبساطة الطلب.

- أريد حبةَ قمح في المربع الأوّل، وضِعفَها في المربع الثاني، وضِعفَهما في الثالث. أي (1، 2، 4، 16، 32، 64،...) وهكذا، حتى آخر مربع في الرقعة؛ فاستهجن الملكُ من وزيره الذي يمكنه أن يطلب الذهب، أو الفضة، أو العاج، ولكنّه، وعلى ذكائه، كان أبلهَ، لم يطلب إلا القمح الرخيص. فتدخَّل عمر:

- يبدو أنه كان جائعاً!

- بل طلب القمح ليعلمنا شيئاً آخرَ في الشطرنج.

– أحسنت يا ورد. فالمفاجأة كانت عند يكتشف الملك أن صوامع البلاد كلها لن تلبي طلب الوزير! فقاطعته نايا:

– الصوامع هي المخازن التي يُحفظ بها القمح، وتسمى في بلادنا أهراء. فقال ورد، بأن نايا ما زالت تتذكر ما قاله جده عندما زرعوا القمح في البدية نهاية الخريف! فقال الأب:

– والمفاجأة الكبرى أن الملك يدرك بأن كل صوامع الأرض كلها لن تكفي حتى نصلَ إلى المربع العشرين في رقعة الشطرنج. فصفّر عمر صافرة طويلة متعجّباً:

– يا لهذا العبقري العظيم! وبعدها فتح الأب هاتفه النقّال:

– انظروا إلى هذا الرقم، فقد نسخته هنا، وهو عدد حبات القمح التي طلبها الوزير: (18446744073709551615) حبة فقط! وحينما رأى عمر هذا العددَ المهول؛ أطلق صافرةً أطول. وهزَّ ورد رأسه متعجِّباً.

– بعد إذنك يا أبتي، سأتأكَّدُ من الرقم ودقته بالحاسوب.

– ومن يستطيع أن يقرأ قطار الأرقام هذا؟ فوضّح الأب أنه ليس مهمّاً، أن نقرأ العدَّدَ، بقدر أهميّة معرفتنا، أنَّ عدَّ هذه الحبّات من القمح. عدَّها وليس زرعها أو حصدها! سيحتاج إلى 584 بليون سنة، وهذا ما قرأه في مجلة علميّة، علماً بأن عُمرَ الأرض 4,5 بليون سنة (البليون ألف مليون). فابتسم ورد متأمّلاً.

– يا لها من رسالة قويّة وحكيمة، أراد أن يعلّمنا إيّاها الوزير العبقري!

– فكم نحتاجُ من كواكب نحرثها ونزرعها بحرص الأجداد! كي نملأ الشطرنج قمحاً!

شكر عمر أباه على المعلومات والنصائح والأفكار. لكنه فكّر مُجدّداً بالوزير وقمحه؛ ففقد تركيزه في اللعبة، وشرد ذهنه، فحاصره أخوه بالفيل والقلعة، بدعم من الحصان، وباغته بصوت المنتصر مُنهياً الدِّست (المباراة):

- كش مات.

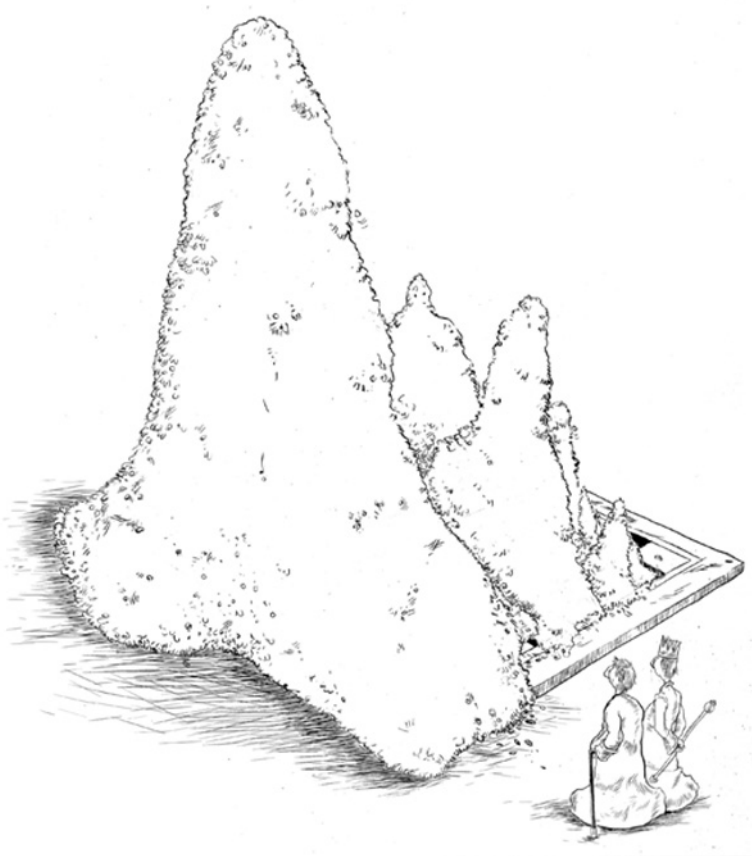

البطاطا تُحلِّي طعامنا

تشعرُ عائلة كريم بالضِّيق الشديد من الثلج، ويسمّونه سجناً كبيراً، فهو يجبرهم على البقاء في البيت، خلال العطلة الشتويَّة التي يقضونها في رحلاتٍ وجولاتٍ في كلِّ عام. أشغلوا أنفسهم بالتلفاز تارةً، وباللعب تارةً أخرى، وهم الآن، وبعد أن تراكم الثلج بقدر فاق قدرة الملح على صهره، يلعبون (الشَّدة) الورق، رغم أن أمّهم لا تحبذ هذه التسلية، وترى أنها تقتل الوقت بدم بارد.

في المطبخ جاءتها رسائل عديدةٌ على تطبيق «WhatsApp»، ففرحت بالكثير منها، وأجمل ما يفرحها النكاتُ التي تصلها من أختها مريم المقيمة في مدينة الرياض. ثم شاهدت فيلماً قصيراً، بعثه أخوها طالب الطّب في (كييف) عاصمة أوكرانيا عن ثلوجهم المتراكمة. وتعجَّبت في نفسها:

– حياتهم تسيرُ بشكل طبيعي. ونحن بقليل من الثلج نرتبكُ، وتتعطَّلُ حياتنا، ونتزاحمُ على محطّات الوقود والمخابز!

انشغلت بالردِّ على الرسائل، التي هطلت على هاتفها، وهي تذكِّرُ نفسها دائماً بالمقولة الشّهيرة: وراء كل طبخة محروقة «واتس آب» مفتوح!

جاء كريم ليستعجل أمَّه بالطعام، فعصافير بطنه تزقزقُ جوعاً، كما قال، فوجدها تكتسي بملامح الحيرة والارتباك.

- خيرٌ يا أمي! هل وصلتك رسالة مقلقة؟

فتذوّقُ حساء الباميا‌ء من جديد:

- يبدو أنني ملّحتُ الطَّعام مرتين. ولا أعرف كيف سأواجه المشكلة؟ فتذوّق الحِساء فتقطَّب وجهه وأغمض عينيه:

- بل قولي يا أمي إنكِ ملحته سبع مراتٍ أو أكثر. وبات عليكِ أن تغيّري مقولتك لتصبح: (وراء كل طعام مالح «واتس آب» فاتح). فضحكت الأم وقرَّرت أن تُرسلها إلى صديقاتها.

تجمّع الأولادُ في المطبخ، فالجوعُ لا يُحتملُ.

- آسفة يا أبنائي. سأطبخُ طعاماً جديداً. عليكم بالصبر.

- الصبر الصبر! أنا لا أتحمَّل مزيداً من هذا الصبر. التصق بطني بظهري.

- أعذروني! ملَّحتُ الطعامَ أكثرَ من مرةٍ. فقال الصغير:

- أنا لا أحبُّ الطعام المالح. وأضافت أخته:

- إنه غير صحي!

- وما الحلُّ برأيكم؟ أنا أتحمَّل الذنبَ! ألهاني الهاتف.

- نضيف ماءً إلى الحساء.

- سيفقدُ الطعامُ نكهته، إن زدنا الحساء ماءً! فتبسَّم كريم:

- سأخرجكم من هذا المأزق، كما أخرجنا ورد من مأزق تكسّر صورة التلفاز. فتعجبت الأم.

- ما قصدك كرومه؟ وهذا اسم التحبُّب لكريم. فتدخّلت رشا.

- ورد ملّح الصحن؛ ليصهر الثلج بسرعة. فكيف ستخرجه من الطعام؟ هذه مشكلةُ المشاكل!

- انتظروا أخاكم العبقري.

وبسرعة تناول ثلاثَ حبات بطاطا من سلَّة الخضار، وقشَّرها، والكلُّ يراقبه بشغف. وبعد تقطيعها قطعاً كبيرةً، أسقطها في الطنجرة. فتذمر الصغير:

– أنا لا أحبُّ البطاطا. أنتم تعرفون هذا. فطمأنه كريم بأن البطاطا لن تبقى في الحساء، ولكنّها ستتكفّلُ بسحب الملح الزائد، حسب خاصية الانتشار، التي تعلّمها في العلوم. فابتهجت الأمُّ قائلة بأن هذه فائدة أخرى للملح!

أطفأت النار بعد دقائق، وتذوقت الحساء؛ فابتسمت، إذ عادت ملوحته طبيعية:

– ما أذكى حبيبي! قالتها وهي تضمّه إلى صدرها.

– شكراً أمي، فأنا ورثتُ ذكائي منك! ثم كتب على حائطه في فيس بوك:

(ورد تغلبَ على الثلج بالملح، وأنا تغلبتُ على الملح بالبطاطا!). وشرح الطريقة المبتكرة لتَحليةَ الطعام المُملّح أكثر منَ مرة بسبب (واتس أب) الأمهات، فحصل على إعجابات عديدة، وتعليقات من أصدقاء مدحوا ذكاء فكرته. وسمّوا هذا اليوم الثلجي: يوم الملح والبطاطا.

دفءُ الثلج

الثلجُ يملأُ عمَّان، وعائلة ورد تمتلئ شوقاً للخروج، ويترقبون أن تُفتحَ الطرقات، فكلُّ ثلج ليس جميلاً، إن لم يكن في جميلة الجميلات، هكذا كان يردِّدُ الأب. فاقترح عمر أن تقومَ العائلةُ بمغامرة السير على الأقدام إلى عجلون.

- تقصد أن نتزحلق إلى هناك!

عند الظهيرة، توقف الهطول، وانقشعت الغيوم، وبزغت الشَّمس بارقة، وكأن شيئاً لم يكن. ففرح الجميع، ووجدوها فرصة ملائمة؛ لأخذ صور مع الجنرال قبل أن يسيل ماءً في عرض الطرقات.

لم يلطِّف ضجر سجنهم إلاّ صوت نايا ترندحُ أغنية كتبها عمر في ثلجة ماضية:

شمسٌ تتغطّى بالغيم
هيَّا هيَّا يا أمطار
جبلُ يتدثرُ بالثلج
غنِّ غنِّ يا أنهار.

طيروا طيروا يا أصحاب
نسبح في بحر السحاب
نوقظ نجمتنا الحلوة
نطرق أبواب الأحباب

أمي قالت:
ابقَ ابقَ في السرير
لا تتحرك يا صغير
قلتُ لأمي:
لا يا أمي
بالثلج نبني فرحتنا
بالمطرَ ننسجُ بهجتنا

صفَّقت العائلة إعجاباً بنايا وصوتها الرخيم، وأثنى ورد على كلمات الأغنية ثم مازحها:

– ألا تلاحظين أن شمسَ هذا النهارِ لا تتغطّى بالغيم؟ إنها مشرقة! فاحتضنت الأمُّ ابنتها:

– حتى ولو كانت الأغنية قديمة، فهي تزادُ جمالاً كلما غنتها قيثارة الدار. وهو لقب تطلقه العائلة على نايا.

– طبعاً، ومن يشهدُ للعروس! قال الأب ضاحكاً. فتدخّل عمر بسرعة.

– لا يشهدُ للعروس إلا أمُّها، وأخواتُها، وعشرةٌ من جاراتها!

– يا لكَ من مشاكس!

قمرٌ صغير

راقب عمر من الشُرفة جاره وزميله في المدرسة مكسيم، الذي نحتَ رجلَ ثلج بشعاً سميناً، بوجه مفلطح، وعينين غائرتين صغيرتين، وأنفهً الباذنجانة يزيدُه قبحاً على قبح.

ولأنه كره هذا المسخ عديم الجمال، فتسلّل مًتظاهراً بأنه يتأمّل الرجل، ثم غافل صاحبه، ورشَّ فوقه ملحاً كثيراً متمنّياً له ذوباناً يستحقه!

بينما كانت العائلة ترتِّبُ أغراضها في السيّارة، كان ابن الجيران مكسيم يتعجب من سرعة انصهار تمثاله!. فتمتم عمر بفرح:

– ما أجمل أن نخلِّصَ العالمَ من كلِّ قبيح! يا له من رجل أخرق يليقُ به الذوبان!

انطلقوا شمالاً مروراً بمنطقة الجبيهة عبوراً إلى شارع الأردن. الأب يقود سيارته بحذر وترو، فالثلج ما زال متراكماً جوانب الطريق. والانزلاقات قد تحدث في أي وقت.

لاحظوا كثيراً من السيارات المتروكة يطمرها الثلج، فيبدو أن السُّبلَ تقطّعت بأصحابها، ليلةَ أمس؛ فتركوها ومضوا. كانت الشمس تسطعُ بقوة، لكنها لم تبدِّد البرد، فزاد الأب تدفئة السيّارة، ليستمتع الأولاد بجمال جبال البلقاء الموشحة بالبياض عن يسارهم.

عند وصولهم مدخل جرش الجنوبي لاحظوا زيادة تدفّق المياه في سيل الزرقاء.

- الحمد لله. هذه السنة ستكون خيراً وبركةً، فكلُّ هذه المياه ستخزَّنُ في سدِّ الملك طلال القريب من هنا.

- إن شاء الله يكبر قمحنا.

- الله كريم يا نايا.

ضاعف الأب شدة حذره على مشارف مدينة عنجرة، فمنطقة القاعدة العالية تأتيها أكبر كميات ثلوج في العادة. كان الضّباب يجلّلُ كلَّ شيء والثلجُ كثيفاً، مما جعل السيّارة تحبو حبواً. فقارن عمر حالتهم ببركة التي أحضرها في صندوق السيارة.

- يا لك من شرير! أنت تريد أن تخنقها؟!

- لا تتدخلي في ما لا يعنيكِ. لقد استأذنتُ أمّي. أريدها أن تتعرفَ إلى طقوسنا في الثلج. فقال الأب بأن جبل القاعدة يرتفعُ أكثرَ من 1250متراً فوقَ سطح البحر، وهو أعلى من القمّة التي بُنيت عليها قلعةُ صلاح الدين الأيوبي في عجلون.

- لماذا لم يبنِ عزُّ الدين أسامة القلعة في هذا المكان؟

- على ما يبدو أن الجبل الذي بُنيت عليه مُحصَّنٌ بشكلٍ أفضل. وهنا طلبت الأم من زوجها أن ينتبه فكثير من السيّاراتً كانت عالقةً أو تصارعُ الانزلاق.

- ستعرفين الآن كيف ستصرع سيارتنا الثلج! ووضع مبدّل السرعة (الكير) على عياره الثقيل، فانطلقت بصعود واثق دون أن تعاني انزلاقاً حتى تخطّوا منطقة الخطر.

- لم نرَ مهارتك هذه في صحراء الجيزة يا أبتي؟!

- المرة القادمة سأكون معكم. قال عمر بحدَّة.

حال وصولهم (عين البستان)، وهي من ضواحي كفرنجة، أخذت اسمها من عين ماءٍ كانت تروي البساتين والمزارع، انشغلت الأم بإشعال النار. وهم يستخدمون مادة (الجفْتَ) في التدفئة، وهو المخلفات الصّلبة من عصر الزيتون، ويعطي حرارةً عاليةً، تناسبُ شتاء عجلون البارد.

انطلق الأولاد للعب مع أصدقائهم الفرحينَ بوصولهم. لكنَّ المعارك الشرسة ما لبثت أن اندلعت في الحارة: الكلُّ يرشق الكلَّ بكرات الثلج. ولا يعلو في الأرجاء سوى ضحكاتهم الناريّة.

عند غروب هذا اليوم الثلجي المُشمسِ، وقفت العائلةُ في الشّرفة تعاين القمر يُشرقُ من الجبال البيضاء. فهتف عمر:

- ما هذا الجمال: ثلج، وقمر، وشمس!. فقال الأب:

- من النادر أن تجتمعَ هذه الأشياء معاً. فهمس ورد:

- كنت أتمنّى قمري وحده هذا المساء.

- إنه البدر حقاً. فهو يبادرُ بالشروق، والشمس لم تغب بعد!

- هذه معلومة لم أكن أعرفها. شكراً بابا. ثم أضاف متأمِّلاً.

- ألا تشعرون معي؟ أن قمر عجلون مختلفٌ عن قمر عمَّان عند شروقه؟!

- ماذا تقصدُ؟!

- ستعرفون قصدي عندما نشاهدُ بدرَ عمان!

- ماذا تقصدُ؟ سأل عمر بإصرار، لكنَّ أخاه تعمَّد ألاّ يردَّ.

سعدُ سعود

توجّهت العائلة إلى دار الجدِّ في كفرنجة بعد ارتفاع القمر، وهي المدينة الكبرى في محافظة علجون. الجدَّةُ التي كانت بانتظارهم لامتهم على المخاطرة بالمجيء.

- الثلج بدونكِ يا جدتي ليس جميلاً، ولا نشعرُ بدفئه بلاكِ!

- أيها الولد حبيب. قالتها، وهي تحضنُ عمر بقوة.

أشعلت طبَّاخ الغاز الأرضي، ووضعت فوقه مقلاة سميكة واسعة، وبدأت تُعدُّ القَليّة، وهي قمحٌ يحمّصُ، بلا أي قطرة زيت؛ ابتهاجاً بالمطر الوفير. فتصاعدت غيمة كثيفة من الدخان وملأت سماء الغرفة، وتمنّى وردٌ لو تمطر قمحاً في الدنيا.

- يااااااه. ما أشهى رائحة القمح!

- لا شيء يوازي هذه الرائحة! قالها الأب، وهو يتناولُ قبضةً من القليَّةِ المقرمشة. وغنّى عمر بصوته الرَّنَّان قصيدة الشاعر محمود درويش مع بعض التعديل:

- أحِنُّ إلى خبز جدتي،

و(قليَّة) جدتي،

وطبخة جدتي

وضحكة أمي.

فضحكوا لمرح هذا المشاكس.

العائلة تحبُّ هذه الأكلة التي تمنحهم الدفء والشبع والرائحة الطيبة، ونايا لا ترغبها إلا برفقة العنب المُجفّف (الزبيب) الذي يدَّخرهُ جدُّها لأجلها.

الجدُّ الذي يلفُّ نفسه بالفروة (عباءة صوفية) كان مسروراً. وقال بأنه من الجميل أن تثلج في أربعينية الشتاء. ثم سأل الله أن يتكرّر الخير في شباط وآذار.

لم تمر جملة (أربعينية الشتاء) على ورد مروراً عابراً، بل طلب توضيحاً كعادته الدائمة بالسؤال والتساؤل. فشرح له الجدُّ عن فصل الشتاء ومسميات أجزائه، في التراث الشعبي العربي:

– الشتاء ثلاثةُ أشهر، تُقسم إلى قسمين: أربعينية الشتاء، وخمسينيته. (المربعانية) بدأت قبل حوالي شهر، أي في 23 كانون الأوَّل وهو الشهر الثاني عشر من السنة، وتستمرُ أربعين يوماً، وهي في العادة باردةٌ وماطرةٌ، ويفرحُ الفلاحون إن زيّنها الثلج.

– والخمسينية؟!

– تبدأ أول شهر شباط، أي بعد أسبوع من اليوم، وتستمرُ إلى 21آذار.

– أي إلى يوم الاعتدال الربيعي. قال ورد. وتابع جده:

– وهذه الخمسينية تقسمُ إلى سعودات أربعةٍ، كلٌّ سعد 12 يوماً ونصف اليوم.

– ولماذا نسمِّيها بالسعود؟!

– لأنَّ العربَ كانوا يسعدون بها. وأولُّ سعد، هو سعد الذابح. فيقول ورد بأنه لا يحبُّ هذا الاسم الذي يذكّره بالشمس المذبوحة قبل سنوات. فيتابع الجدُّ:

– يبدو أن أحدهم، من شدَّة البرد ذبح جمله، ليتدفأ ويتغطى بجلده، ولهذا سمِّي سعدُ الذابح! ثم يأتي (سعدُ إبلع)، فهنا تصبحُ الأرضُ كالإسفنجة، تبتلعُ كلَّ الأمطار التي تنهمرُ عليها. فيكملُ الأب.

– معظم المياه الجوفيّة تُخزّنُ في هذه الفترة من خمسينية الشتاء، ثم يأتي (سعد السعود) وتظهر تباشيرُ الربيع، وتتحركُ العُصَارةُ في أغصان النباتات ونحن نسمِّيها (المَاويّة). فأكملتِ الأم:

– وآخر جزءٍ سعدُ الخبايا.

– وما أدراكم ما سعد الخبايا؟! قالتها الجدة التي أكملت قليتها.

– تطلعُ من مخابئها (الحيايا)، وتختبئ الصبايا! فوسع وردٌ عينيه طالباً توضيحاً.

– في هذا السَّعد ترتفعُ درجاتُ الحرارة، فتبدأ بعض الكائناتُ الحيَّةُ بالخروج من بياتها الشتوي كالأفاعي والسحالي. ويكمل الأب:

– وبما أن شمس هذا السَّعدِ حارةٌ بعض الشيء، فعلى البنات الحلوات، أن يتجنّبن الوقوف تحتها، وعليهنّ أن يختبئن في البيوت. فالشمس تكون زاخرة بالأشعة فوق البنفسجية، التي تسبِّبُ أضراراً في طبقة الجلد، وتُحدِثُ فيه تجعدات وتغضنات. فتضيف الأم:

– قرأت في مجلة العربي موضوعاً طبياً عن مخاطر الشمس، فهناك حالة مرضية تُعرفُ ب (وجه السلحفاة). وهنا هتف عمر:

– يااااااه نسيتُ بَرَكة في السيَّارة.

– لا تخف. أنا أدخلتها إلى البيت. وتابعت حديثها:

– وجه السلحفاة هي تجعداتٌ شديدة يسبّبها التعرّض الطويل للشمس.

– يبدو أنكم دخلتم إلى الفيزياء حقلي الخاص. ولهذا من المناسب معرفة أن أشعة الشمس في سعد الخبايا تخترق جوَّ الأرض بصورة مائلة، متضمنةً كميات من الأشعة فوق البنفسجية الضَّارة. فقالت الجدة:

– (شمسُ اللوز تخلي الصبية عجوز). فضحك الأب.

– بالضبط يا أمي! إنه مثلٌ دقيق يتفقُ مع العلم. ثم وضّح أن التعرض الطويل للشمس وقت تنوير أشجار اللوز يسبِّبُ تجعداتٍ في الجلد، أي يجعلُ البنت عجوزاً.

أضيعُ من قمرِ الشتاءِ

السهرةُ ممتعةٌ في بيت الجدِّ، ولكن لكلِّ شيء نهاية، كما قالت الأم، فاحتج الأبناءُ على المغادرة المبكّرة!

– الساعة التاسعة. وهذا وقت متأخر في الشتاء! أكّد الأب، ثم بيَّن أن الطريق ستغدو زلقة إن تأخروا بالسَّهر. طلبت الأم من أولادها وزوجها أن يشربوا ماءً قبل خروجهم، وأن يتنفسوا من أنوفهم، كي لا يصابوا بنزلة برد. وهذه الأوامر تصدرها دائماً في مثل هذه الأجواء. وتبرِّرُ التنفسَ بالأنف بأنه يدفِّئُ الهواءَ قبل دخوله إلى الرئتين.

كانت السماء صافية، والجبال تبهرُ الأبصار بثلوجها. فقال الأب بعد أن رفع بصره:

– سيتشكّلُ الجليدُ الليلة، فالسماء مكشوفة تماماً، فاستفسرت نايا عن العلاقة بين صفاء الجو والجليد؟

– لو كان في السماء غيوم لكانت كالغطاء بالنسبة للإنسان. أي لحافظت على حرارة الأرض ومنعت تبدِّدها.

– والليلةَ؟

– ستخسرُ الأرض كثيراً من حرارتها، فهي بلا لحاف أو غطاء، ولهذا ستنخفضُ حرارتُها إلى ما دون الصفر، وسيتشكّلُ الجليدُ.

فهتف عمر:

– جمييييييل، سنبقى مدةً أطول في عجلون. يااااه. كم أحبُّ الجليد وشكراً للسحب التي تركت الأرض مكشوفة بلا لحاف!

من شبَّاك السيَّارة المُضبَّب راقب الأولادُ القمر، الذي وصل إلى كبد السماء. كان يواكب مسيرهم، وكأنه يمشي معهم كقطٍّ أليف! تأمّلته نايا بحنو وقالت بأنّه شمسٌ ثانية!

– ما أجملَ القمر، لولا البردُ! قال ورد بتحسر:

– العرب تقول عن الأشياء التي لا يمكن الاستفادة منها: (أضيعُ من قمر الشتاء)، وهذا مثلٌ معروف، فلا أحد يأبه بالقمر أو السهر مع نوره، في الليالي الباردة، كما نفعلُ في الصيف.

– لا تستعجلوا الصيف! نريدُ أن نتمتّعَ بالثلج وأيامه. قالتها الأم، ونبَّهت زوجها، أن يتوخّى الحذر؛ فخفَّف سرعته قائلاً:

– بعض النظريات العلمية، تدَّعي بأنّ القمر كان قطعةً من الأرض، وانفصل عنها وظلَّ يدورُ كطفل يدورُ حول أمّه. وأضاف:

– من أجل هذا يجذب القمرُ ماءَ الأرض، في ظاهرة المدِّ والجزر، التي تحدث في البحار والمحيطات. فاستحسن الأب استنتاج ابنه الشغوف بكل ما يتعلقُ بالقمر.

– يتوقُ إلى الحياة، ويعشقُ أسبابَها! أو يحنُّ إلى أمّه!

– كم أتمنّى أن أشاهد الأرضَ كرةً زرقاءَ من فوقه. كان ورد يردّد في سرِّه، بينما القمرُ يملأ الشبَّاك.

نورٌ وضياء

العـائلة لم تنـم مـبـاشـرة، فـالظاهـر أن القليَّـة أثقلت بطـونهم، فـخرج الأب إلـى الشرفـة بعـد أن أثقل مـلابسـه، ولفَّ رأسه بكوفيـة، ليتمتع بالثلج المُقمر. فتبعه الأولاد رغم ممانعة الأمِّ.

– أيةُ عائلة مجنونة أنتم؟ ثلج وتلاحقون القمر!

– نريد أن نفـسـدَ المثلَ الشـعـبـي، ونكسبَ قليـلاً من السـهـر مع ابن الأرض. فـي هذه الأثنـاء تأتيـهم الأم ومـعـهـا أكـوابٌ يتـعـالى بُخارها.

– الشاي سيمنحنا دفئاً استثنائيّاً.

– إنها (مـريميّـة) لتولّد الدفء لعـائلة مـجنونة! فضـحكوا وهم يتناولون أكوابهم. فقال الأب بشاعرية:

– إنه ساحر يا عـزيزتي! فعلى مرِّ العصـور قدَّستهُ أقوامٌ كثيرة، ومـا زالت قـبـائل تجلّه وتحـتـرمـه. ولا شكَّ أن كثيـراً مـن الناس تفتنُ بجماله!

– كيف تريدونني أن أفتن بضياء القمر وأنتم حولي؟!

– شكراً يا قـمري المنيـر، ولكنك وقعتِ بخطأ علمي. فـاندهشت وطلبت من زوجها مازحةً، ألاّ يقلب السهرة فيزياء ومعادلات.

– يعـجـبني فـيك يا أبي أنك تدخلُ (عـمتنا) الفـيـزيـاء، في كلِّ شيء، حتّى في الغزل!

- الفيزياء حياةٌ يا صاحب القمر! ثم نظر إلى زوجته:

- هل تعرفين الخطأ الذي وقعتِ به؟ فأجابت ضاحكة:

- سأجعل ابني يجيب عني!

- قلتِ يا أمي: ضياء القمر، والأصح: نور القمر. فابتسمت منتبهةً.

- فاتني هذا أيّها القمري.

- الضياءُ يكون من مصدر رئيسيٍّ للضوء والطاقة كالشمس، والنجوم والمصباح، وكوجهكِ الوضّاء يا زوجتي الجميلة! فضحك الأولاد، وتابع الأب:

- أما النّور، فهو انعكاسٌ لضياء ما. كحالة القمر، الذي يعكسُ ضوء الشمس. وكالضوء الذي تعكسه الأرض عن الشمس.

عندها تمنّى ورد من جديد، أن يقعدَ على سطح القمر، متأمّلاً نور الأرض، ومبتهجاً بزرقتها السّابحة.

- يبدو أن أخي سافر للقمر. فقال ورد:

- أنا هناك!

فتابع الأب بأن القرآن الكريم وضّح الفارقَ بينهما في الآية الكريمة (هو الذي جعلَ الشمسَ ضياءً والقمرَ نوراً). أي أن الضياء ضوء صّادرٌ عن جسم مُشعٍّ كالشَّمس، والنُّور انعكاس لهذا الضياء كنور القمر. واضافت الأم:

- ويقول عزَّ وجل في آية أخرى:(وجعل القمر فيهنّ نوراً، وجعل الشّمس سراجاً). والسّراج كالقنديل يصدرُ الضوء ويشعشعُ به.

الذئبُ العاشقُ

لم ترق لعمر أن تتحولَ السَّهرةُ إلى درس علوم فغيّر الموضوع مقترحاً أن يسمعهم قصة سيشترك بها في مسابقةً وزارة الثقافة. فقالت الأمُّ مندهشةً وهو يخرجُ الورقة من جيبه:

– الله أكبر! قرأتَها لي خمسَ مراتٍ حتى الآن. ارحمنا يا حبيبي!

– وماذا ستخسرينَ يا ستَّ الكلِّ، إن سمعت ابنك الجميل يقرأ لكِ القصّة للمرةِ السادسة، أو السابعة؟ فاستعجلته نايا.

– خلّصنا أيها الحكواتيّ البارع.

كان الذئبُ يعتقدُ أنَّ القمر، إذا اكتملت استدارته بدراً، فإنه يصيرُ صديقه الذي يحادثه ولا يملُّ النظر إليه. ولهذا كان يعوي مبتهجاً كلما لاح البدرُ منيراً السَّماء بضيائه الجميل. فتدخّل ورد:

– قلْ: بنوره الجميل! ما زلنا نشرحُ الفرق بين النُّور والضّياء. فأعادها مصحِّحاً الخطأ.

– وفي ليلة كانت الغيومُ تغطِّي السَّماء، بين الحين والآخر، فاختفى البدرُ خلف غيمة كبيرة، فحزن الذئب وسار مهموماً في الغابة، حتى وصل بركة ماء صافية كالمرآة، فنظر إليها بتأمّل، وإذ بصديقه البدر على صفحتها.

هاج الذئب معتقداً أن القمر تعثّر بغيمة، وسقط في الماء، وهو

يعرف أنه لا يتقنُ السِّباحةَ مثله تماماً، ومع هذا، رجع إلى الخلف ليكتسبَ عزماً، ثم قفز بكلِّ قوةٍ؛ لإنقاذ القمر الغارق، ولكنه ما إن سقط في الماء، حتى كاد يختنق فعوى مستغيثاً.

من حسنِ الحظِّ كان الفيل قريباً، فأسرع ومدَّ خرطومه ساحباً الذئب قبل أنَ يلفظ أنفاسه. ووبخه بعد أنا استعاد وعيه:

- بما أنك لا تعرف السباحة، فلماذا غطست في الماء يا صديقي، كدتَ تفقدُ حياتك؟!

- المهمُ أنني أنقذتُ صديقي البدرَ من الغرق! انظر إليه! ها هو عاد سالماً إلى سمائه. فصفقت العائلة بحرارة.

- هذه محكمة أكثر من قصة الكلب والقطَّة. يبدو أنك اشتغلت عليها بشكل أفضل؟!

- منذ أسبوعين، وأنا أعدِّل وأبدِّلُ.

- هكذا تُصنعُ القصصُ الجميلة يا جميل.

الليلُ الأبيض

قصةُ الذئب حركت ذاكرة الأب فقال بأنه سيقصُّ عليهم حكاية عالمية عن أصل الليل. فرح ورد، واقتربت نايا لتتصرَّ بحضن أبيها، فيما احتضنت الأم عمر، الذي بدأ النعاسُ يغزو عينيه.

تدَّعي الأسطورةُ أن الليل في سالف الزمان، كان أبيضَ مثل القطن. وفي إحدى ليالي الصيف أقام سلطان الكروم حفلاً كبيراً باذخاً، دعا إليه حشداً من عناصر الطبيعة: الأحياء والجمادات، واشترط أن يلبس المدعوون ثياباً داكنة السواد.

عندما وصل الليل إلى تخوم القصر، سحرته خيوط الموسيقى المتسرّبة من سور الحديقة، وملأت أنفه روائح زكيةٌ من أطعمة ساخنة. ولمّا همَّ بالدخول أوقفه كبير الحرس وحيَّاه بإجلال، وذكّره بأنه لا يقدر أن يحضر الحفل بلا ملابس سوداء، فخجل الليل، وانسحب منكسراً من حيث أتى، وقلبه مثقل بالحزن، فغطته غلالةٌ من الكآبة.

في الليل نفسه زادت حدة الحسرة بعد تواريه عن الأنظار لزمن طويل. فانحسر بهاؤه وكساه الشحوب. ومن يومها غدا الليلُ حالكَ السوادِ، إلا من نقاط تلمعُ في وجهه. إنها دموعه التي تحولت إلى نجوم نراها في السماء بعد الغروب.

ولكن الليل ظلَّ يكابد مرارة أقسى في عزلته؛ فأنجب القمر

تعويضاً له عن بياض مفقود. وصار كل ليلة يطلع في وجهه مضيئاً وضّاءً ينسيه بعض حزنه ويسليه، ومن يومها صار ابن الليل (القمر) سلوة وبهجة للمحرومين والمُحبين، أو الذين فاتهم ملاقاة أحبتهم، أو خابوا في تحقيق ما يتمنّون. فهمس ورد:

– إنهُ تعويض لي عن شمس ذابت ذات غروب.

– ربما ستفوتنا حفلةٌ من الحفلات، أو أنَّ شرطَ حضورِ شيء ما لا يعجبنا. عندها علينا أن نعود إلى نفوسنا، لتكون دموعنا نجوماً نابضةً، نهتدي بها، وليتولد فينا قمرٌ ينمو كل ليلة حتى يغدو بدراً، فيعطينا شعوراً طيباً، ألاّ نأسى على ما خسرناه.

– ما هذه الشاعرية يا أمي؟! تدخّل ورد باسماً. لقد حلّقتُ مع كلماتك، إلى أبعد من القمر!

– ليستْ شاعريةً، بل وعيٌ وتفهّم للحياة يا صديقي. ثم سألت:

– ماذا لو كان وجه الليل أبيض ناصعَ السُّطوع؟ هل كنّا سنرى وجوهنا على حقيقتها ولونها؟ أو كنَّا نستطيع أن نحاسبها بعيداً من ضوضاء الضوء؟ وهل كنّا سنتخذُ هدأةَ الليلِ وهدوءه صومعةً يوميَّةً، نخلو بها مع أنفسنا بحبٍّ؟ فهتف الأب:

– يا لها من فلسفة راقية يا حبيبتي!

– هيَّا ادخلوا إلى نومكم، أيّتها العائلة القمرية. وصل الجليد!

نضحكُ ملء الأرض

ما إن صحت نايا من نومها، حتى أزاحت بُرداية الشبَّاك، فأدهشها الهدوءُ، والشمسُ التي تزيد من بياض الدنيا. غسلت وجهها بسرعة، ولبست ثيابَ الثلج الخاصة، وهمّت بالخروج، إلا أن أمها طلبت منها التريُّث:

- تحتاجين طاقة، كي تلعبي في هذا البرد!

بعد الفطور، أخذ عمر ونايا فتاتاً من الخبز، لنثره تحت شجرة الزيتون، فهذا مكان تتجمَّعُ فيه العصافيرُ عادة.

- تريدان أن تستغلا جوعَ العصافير لصيدها؟! يا لكما من شريرين!

- أبداً يا ورد. نريد أن نطعمها. الثلج يمنعها من العثور على الطعام.

- آسف. كان عليَّ ألا أتعجّل في الحكم.

من شبَّاك البيت، ابتسم الأب في نفسه، وحَمَدَ الله أن جعل أبناءه بهذا الحسِّ العالي نحو الحياة والمخلوقات.

تجمَّعت العصافير بعد دقائق، وأخذت تلتقطُ الخبزَ بمرح. الأخوان المختبئان خلف الشجرة راقبا غناءها وشدوها، فتذكّرتً نايا قصيدة لأبيها:

هيَّا نغني.
كالعصفورِ،
نرقصُ
بسرورٍ وحبورِ.

نضحكُ ملءَ الأرض
ونمرحْ،
لا لم يحيَ
من لم يفرحْ.

هيَّا نغني
كالعصفورِ
نتوّج بهجتنا بالنورِ.
نرنو دوماً
نحو الشمسِ،
نحيا اليومَ
لا في الأمسِ.

هيَّا نغني
كالعصفور
نرقصُ.
بسرورٍ وحبورِ

وما كادت تنهي أغنيتها، حتى ملأت العصافير المكان بشكل غريب.

- يا لَصوتكِ الجميل! كان على أبي أن يسمِّيك (ناي) وليس نايا. أنت تصلحين شبكةً لصيد الطيور!

العلكةُ تهزمُ الضغطَ

قبل الظهيرة خَفَّ تأثيرُ الجبهةِ الهوائية، التي تسبَّبت بموجة ثلجية عمّت بلاد الشام (الأردن وسوريا وفلسطين ولبنان). لكنَّ تحسُّرَ عمر لم يخف وظل يردِّدُ:

– لو أن هذه الثلجة أجَّلت نفسَها أسبوعاً، كي تتمدّدَ العطلةُ الشتوية. إني أكرهُ المدرسة، أكرهها! فسمعته نايا، التي رفعت صوتها، كي تجذب سمعَ أبيها:

– ماذا تكرهُ يا عمر؟! ماذا تكره. هاه؟

الوالدان كانا مشغولين بالتجهيز لرحلة الأغوار.

– أيةُ عائلة هذه؟ عائلة تسهر في البرد مع القمر! ثم تقوم برحلة في الثلج! هكذا كانت تهمسُ الأمُّ، فردّ ورد وهو يدخل المطبخ:

– ليس هناك ما هو أجملُ من الأغوار في الثلج، إلا السهر مع قمر بردان! فضحكت.

– ألا تذكرين يا سيدة الجميلات رحلة العام الماضي؟ كنّا في عجلون نتجمدُ برداً، وفي الأغوار كدنا نخلع ملابسنا حراً!

– ولكنكم لا تساعدونني، وتريدون كلَّ شيء جاهزاً. فاحتضنها معتذراً.

عبر طرقات يتراكمُ على جوانبها ثلجٌ مُطيَّنٌ. انحدروا باتجاه

كفرنجة؛ ومنها إلى الأغوار. فظهرَ سدٌّ قيد الإنشاء. فأخبرهم الأبُ أنه سيكون مشروعاً مهماً للمنطقة، وسيغذي الأغوار في الصيف.

– لكنهم أبطأُ من بَرَكة يا أبي. فمنذ سنتين، وهم يعملون بلا فائدة.

– المشروع مدته ثلاث سنوات يا بُني. وبقي سنة، وسينتهون. فتخيّل عمر بحيرته الواسعة.

– أريدك يا أبي أن تشتري لنا قارباً وصنارات وشِباك صيد، وأعدك ألا يكون غداؤنا في عجلون إلا سمكاً طازجاً.

– يا لأحلامك الكبيرة.

– الأحلام أجملُ الأشياء!

ما إن وصلت السيارة بلدة كُريمةِ، حتى تسلَّلَ الدفءُ إلى أجسادهم. فجالت أبصارهم في المساحات الخضراء.

– ما أجملَ بلدنا! فبظرف دقائق نستطيعُ أن ننحدرَ من ألف متر فوق سطح البحر إلى 400 متر تحته!

– ولهذا تتعدّدُ أحوالُ طقسنا، وتتنوعُ الكائناتُ والنباتاتُ التي تعيش معنا.

– وتستطيع العائلات أن تقومَ برحلة في الثلج إلى الأغوار؟!

– صحيح. لماذا لا ينزلُ الثلج هنا؟

– لأنها منخفضة يا ستَّ الحُسن. أجاب عمر نايا.

– الحرارة لا تنخفضُ هنا لدرجَة تكوين الثلج. أكّد الأب. كما أن الضغط الجوي مرتفعٌ جداً.

شعر الأولاد بثقل مزعج في آذانهم. فتذمّرت نايا، وشكت من ألمٍ في طبلة الأُذن. وفتحت الشُبَّاك.

- أكـره الأغـوار؛ إنهـا تثـقـلُ أُذنيَّ وتجـعلني أحسُّ بـالصـمم والطرم. فتدخّلت الأمُّ.

- هذا بسبب ارتفاع الضغط الجوي يا عمر. فنحن نقترب من 350 متراً تحت سطح البحر. ويضيف الأب:

- ولهذا يكون عـمودُ الهواء أطولَ هنا، ولأننا كنّا في عجلون المرتفعة، فتبدأُ طبلةُ الأذنِ بالتَحسُّسِ من هذا الثقل الإضافي للهواء.

- وما الحلُّ يا أمي؟ فردَّ ورد:

- أن تصبرَ قليلاً، وستتأقلم أذناك على هذا الضغط، مثلما تأقلمت عينا نايا على عتمة السينما. وهنا أعطاه الأب حبةَ علكة:

- امضغها، وستعمل على معادلة الضغط، على جهتي طبلة الأذن، وستعود لوضعك الطبيعي سريعاً.

ورد الذي كان مشدوداً للمساحات الخضراء، أرسل بصره في كلِّ الاتجاهات بفرح، فيما أشعة الشمس الدافئة جعلته يلصق وجهه بزجاج الشُبَّاك. ثم أخذته التفاتةٌ إلى السماء؛ فرأى سِرباً من الطيور على شكل رأس سهم.

- هل هذه التي شاهدناها فوق صحراء الجيزة يا أبي؟

-لا يا رجل، تلك ربما وصلت مصر الآن أو أبعد!

وأضاف بأن هذه الطيور مهاجرة، وأنها حسبَ ما يعتقدُ نوعٌ من أنواع البجع يسميها أهلُ الأغوار (أبو سعد)؛ فهي إشارة لشتاء طيب يسعدهم. بعدها لاحظَ الأب شرودَ ابنه فباغته سائلاً:

- بماذا تشعر يا ورد؟

- أشعر بالسعادة!

موت العصفور

حطَّت رحالُ العائلةِ قرب نهر الأردن جوارَ بيارةِ حمضيات. كانت مزرعة واسعة زاخرة بالكالمنتينا، والبوملي، والليمون، واليوسف أفندي، والجريب فروت (الليمون الصيني). وأدهشتهم أكثر حباتُ البرتقال المتدلية كأقمار على أشجار.

عبقُ القِدَّاحُ الأبيض (نوَّار الليمون) يملأُ الأرجاءَ، بعطر فوَّاح، فنسي عمر ثقلَ أذنيه وهمَّ برمي علكة فمه، فتصدَّت له أخته بغضب:

- أيّاكَ أن ترميها على الأرض.

- لو كان النهر أقرب؛ لرميتها فيه، كي تستمتعَ الأسماكُ بعلكة النعناع.

- عليك أن ترميها في صفيحة الزبالة. فضحك مقهقهاً:

- أقصدُ أن تلفّها بمنديل ورقي وتضعها في جيبك، حتى تصل البيت.

- كلُّ هذه القاذورات من حولنا، وتحاسبينني على علكة صغيرة، لا أحد سينتبه لها!

- لأنها صغيرة فستكونُ قاتلةً كبيرة.

- كيف؟

- العلكةُ موتٌ مُحققٌ للعصافير! فيرفع حاجبيه مستغرباً:

- مش فاهم؟

- العصفورُ الباحثُ عن طعام، يعتقدُ أن العلكة تناسبه فيلتقطها. وهنا يكمنُ موته. وفجأة يدرك عمر خطورة الأمر.

- واااااو! أنا أكره أن أكون قاتلاً لكائنات أحبها.

- العلكة تعلقُ بمنقار الطائر، ولن يستطيع التخلص منها؛ فتسبِّبُ له اختناقاً!

- أنتِ شجاعةٌ استطعت إقناع عمر بشيء.

- من الآن يا أمي، لن أرمي علكةً في العراء، ولأجل العصافير التي أحبها؛ سأطلقُ حملةً بيئية بشعار: (لا تقتلوا الطيور بالعلكة). فهتفت نايا:

- العلكة التي تهزم الضغطَ قد تقتلُ الطيور!

زهرة الريح

تلقتِ العائلةُ اتصالاً من الجدَّة، تحثُّهم على عدم التأخر في رحلتهم، التي رفضت على غير عادتها، أن ترافقهم بها بحجة أن لديها بعضاً من الأعمال.

تريدُ الجدةُ أن تفاجئهم بأكلة يحبونها كثيراً. وبالأخصِّ عمر الذي يراها أشهى أكلة في العالم، والكل يحفظ غزله الشفيف بها:

– يااااه، ما أطيبَ رأسَ الخروفِ. فيه كلُّ النكهات. اللسان نكهةٌ، والنُخاعُ بمذاق. والعينُ طعمها لا يُنسى.

نايا لم يعجبها أن يعودوا بهذه السرعة، فالرحلة لم تبدأ بعد، وقد جلبت مضربي الريشة عبثاً. وكانت تودُّ لو يبقوا؛ حتى يروا الشَّمسَ تغرقُ خلف تلال فلسطين.

ثم ذكَّرت أخاها، بما قالته الجدة عنه، عندما كان في الخامسة من عمره. وكيف اعتقد أن الغروب دم الشّمس بعد أن ينحرها الأشرارُ. فقالت الأم مبتسمةً:

– يبدو أن نايا تحفظ ذكريات الجميع!

– ذكرتني. الليلة سيشرقُ القمر بعد الغروب مباشرةً. ولن نتركه يضيعُ هباءً. سنساهرُهُ. أليس كذلك؟!. فابتسم الأب ونظر إلى زوجته قائلاً:

– أنتم عائلة مجنونة بامتياز!

رجت نايا أباها أن يمنحها بضع دقائق؛ لتجمعَ من سجادة الأرض باقةَ دحنون وأزهار.

- نايا ورثت منّي حبَّ الدحنون. كنتُ أحبُّه حباً لا يقاوَمُ. وجدتي رحمها الله كانت تمنعُني أن أدخل بيتها وهو معي، بحجة أنه يمنعُ الدجاج من البيض. فضحك عمر متسائلاً عن علاقة الدحنون بالبيض.

- اللون الأحمر قد يكون مؤثراً في خصوبة الدجاج!

صعدت السيَّارةُ إلى عجلون تاركةً دفءَ الأغوار، فيما خفَّ الضغطُ في آذانهم بهدوء وسكينة.

فرح الأب بباقة الدحنون التي نضَّدتها نايا. ووضَّح لهم بعضاً من صفات هذه الزهرة البرية.

- الدحنون يُسمى الشُّقارى. والشُّقارى هي الحُمرة. ويسمّى أيضاً زهرةَ الريح، لأنه ينبتُ بسرعة، وبسرعة يجفُّ، فتذروه الرياحُ. وهو شقائق النعمان.

- قرأتُ أن ملكَ الحيرة، النعمان بن المنذر بن ماء السماء، مرَّ ذات يوم بمدينة الكوفة في العراق، فرأى أرضاً تنبتُ زهراً جميلاً أحمرَ؛ فاستحسنهُ، ووقع في غرامه، فقال لجنوده: احموه وأحرسوه! ومن يومها، وأزهارُ الدحنون تسُمّى شقائق النعمان.

- جميلة معلوماتك التاريخية يا أمي. قال عمر. فأضاف الأب:

- ويُقال أيضاً، إنَّ كلمة النعمان من أسماء الدَّم، في بعض لغات العرب القديمة، والشقائق قطعه، فتكون شقائق النعمان بمعنى: قطع الدم، وكأنهم يريدون أن هذا الدحنون، ليس إلا دماً يخرجُ في كل عام متجدداً؛ ليوقع الناسَ بعشق الحياة وحبِّها.

– وربما يا أبي، أنّهُ دمُ الشهداء. فأرضنا تزخرُ بمن ضحّوا بحياتهم لأجلها.

– جميل! جميل!

ماء يغلي على درجة 200 مئوي

من عتبة البيت، شمشمَ عمرُ الهواءَ كهرَّة. فعرف السرَّ قافزاً فرحاً:

- شكراً جدتي. إنها أطيبُ أكلة في الدنيا. الرأسُ نكهة مختلفة.

لكنَّ تجهماً علا وجه نايا، فأخذتها الجدة بحضنها:

- أنا أعرف أنكِ لا تحبينها فخبزت لك فطائرَ الزعتر.

- كم أنت طيبة يا جدتي!

الأم تكفلت باكمال المهمة، فدخلت المطبخ يتبعها عمر، الذي أراد أن يتفقَّدَ احوال طبخته الأثيرة. كانت طنجرة الضغط تصفِّرُ بعنفٍ فوق رأس الغاز.

- كم تحتاجُ من الوقت يا أمي لتنضجَ؟

- يا فتّاح يا كريم. لا تكن عجولاً يا ولدي. اصبر قليلاً. فجدتك قالت بأن الطنجرة صفرت للتو، وتحتاجُ إلى نصف ساعة على الأقل. فيتدخّلُ ورد:

- أعتقدُ أن العالم مدينٌ بالشكر لمخترع طنجرة الضغط، يا أمي، بل ويستحقُ جائزةَ نوبل! لأنه وفَّر وقت النَّاس، وسرَّعَ في إنضاج طعامهم. ولكني أتوق لأعرف كيف تعملُ هذه الطنجرة؟

فتذمّر عمر:

– هذا ليس وقتاً للفيزياء! والله أهلكتونا!

– لا عليكَ منه. قـــالت الأمُّ، أنا درست الموضـــوع في سنتي الجامعية الثانية. فسُرَّ ورد.

– تقوم فكرة الطنجرة على حبس البُخار المتصاعد من الطعام، مما يسببُ زيادةً هائلة في الضغط الجوي داخلها، وهو الأمر الذي يرفعُ درجة غليان الماء إلى 200 أو 300 درجة مئوية. فهز ورد رأسه متعجباً وقال:

– في الظروفِ الطبيعيةِ، يغلي الماء على درجة حرارة 100 درجة مئوي تقريباً، ولا ترتفع حرارته أكثر من هذه الدرجة.

– صحيح. ولكن عندما يضغط البخارَ فوق ماء الطنجرة؛ ترتفع درجة غليانه، أي أن حرارة الماء قد تصل إلى 200 أو 300

درجة ولم يغلِ بعد، وهذا يرفع حرارة الطعام، فينضجُ بسرعة كبيرة. فتذمّر عمر مجدداً.

- يا جماعة الخير. عصافير بطني تصوصو، وتزقزق، وتشقشق، وأنتم تناقشون غليان (المي)!

- اقترب الموعد يا عزيزي. تحلَّ بالصبر.

تناولت الأسرة الكبيرة بشهيَّة هذه الأكلة الشعبية التي تحرصُ الجدَّةُ على إعدادها كلَّ ثلجة. وخلال الطعام كان عمر يشدو بكلماته المعتادة بطريقة مسرحية بكثير من البهجة:

- ليس هنالك أطيب من رأس الخاروف. فلكلِّ شيء فيه مذاق مختلف. العين لها نكهة، واللسان نكهة أخرى. وأطيب من كل هذا المخِّ.

رشَّ الجدُّ قليلاً من الملح على المُخِّ، ليطعمه لحفيده.

- أحبُّ الخِراف الذكية يا جدي.

- وكيف تميّزُها عن الغبيّة يا أبا الرؤوس؟

- بسيطة. الخروف الذي مخهُ كبيرٌ يكون ذكياً.

- ويكون أيضاً مُحبّاً للموسيقى منقاداً لها!

- لم أفهم قصدك يا جدي، ما شأنُ الموسيقى بالمخِّ؟

- لقد ذكرني كلامك عن المخِّ والذكاء، بحكاية شعبية سأرويها لك الليلة يا أفندي. فقال عمر، وقد أعجبه هذا اللقب العسكري القديم.

- إذن عليك يا أخي أن تُساهر قمرك وحدك. وأنا سأساهرُ جدي؛ لأعرف حكاية الموسيقى وعلاقتها بذكاء الخِراف. والآن دعوني آخذُ ذكاء الخروف كله.

كرةُ بنت الجيران

شكر الجميعُ الجدَّةَ على طعامها اللذيذ، وغادرت العائلة باستثناء عمر الذي بقي منتظراً حلول المساء، كي يستمتع بالقصة التي وعد بها الجدُّ. وفي ذهنه ظلَّ يتساءل عن علاقة الموسيقى بالمخِّ والذكاء؟ والذكاء بالخروف؟ وكان كلَّ لحظة، يتوصَّلُ إلى أنه، لا بدَّ له أن يصبر، وألا يكون عجولاً.

- الصبرُ زين! الصبر طيِّبٌ!

في البيت جعلت نايا باقةَ الدحنون قسمين: باقة وضعتها في مكتب أبيها، والأخرى في غرفتها. أمّا ورد فخاض معارك كبرى مع أبناء الحارة؛ متمنِّياً لو أن أخاه معه.

- الأخُ ذراعٌ أخرى!

فما إن نزل ورد من السيارة، حتى أصابته كرة ثلجية مجهولة المصدر. فقرَّر أن يشنَّ هجوماً مضاداً بمرح وفرح.

اشتعلت الحرب، وتعالت الصيحات. هي حرب ليست ككلِّ الحروب. فلا يوجد لك خصمٌ واحدٌ، بل الكلُّ يضربُ الكلَّ. الكلُّ يكوِّر الثلج، ويقذف الآخرين بكراته.

الأب الذي أعجبه، أن يراقب المعركة، تذكّر نفسه فتًى بعمر ابنه، أو أكبر بقليل، وتذكّر الكرة الثلجية، التي ما يزال طعمُها عالقاً في ذاكرته. حينما باغتته بها بنتُ الجيران الخجولةُ، فدخل كثير

من الثلج تحت كنزته وأشعله بدفء لذيذ.

يومها لم يشعر بالبرد! بل أحسَّ وكأنه بركانٌ يؤول إلى الثوران. فأخذ بسرعة يرصُّ كرة ثلجية، ظلت بيده لأكثر من ساعة. علَّ بنت الجيران تكرّر خروجها، فيردّ لها الضربة، مع كثير من أمنيات الدفء.

لم يعد الأب من ذكرياته، إلا بقذيفة أصابت قلبه. كانت قوية، فهي من مكان قريب. فزوجته التي كانت تراقبه وراء الشجرة، باغتته بها، وراحت تهيّئ كرة ثلجية ثانية عاجلته بها.

- يبدو أنك تتذكر طفولة دافئة. أيها الشاعر الجميل!

تقلُّصُ النَّهار

معركة الثلج الساخنة لم تمنعه من تذكّر قمره، الذي سيشرق بعد قليل. ولهذا انسحب ورد انسحاباً منظماً؛ كي لا ينال مزيداً من الكرات التي تطارده بضراوة وخبث.

مع الغروب، ظهر نورٌ قوي، وراء الجبال الشرقية لعجلون. وأخذ شيءٌ من البدر يبزغ، وكأنه ينمو ببطء. كان مشهداً بديعاً رغم أن بعض الغيمات تهمُّ بالسباحة نحوه.

بعدما ارتفع البدرُ بقدر شبرين أو أكثر، فوق قمّة الجبل، رحَّب به بمسرَّة.

- أهلاً بشروقك يا صديقي. فقال الأب، الذي جاء ليقف جواره.

- يبدو أننا لن نساهر قمرك الليلة!

- الظاهر أن الغيوم تجيشُ في السماء؛ لتمطر أو تثلج مجدّداً.

- الله كريم. قالها الأب، وهو يتأمّل المشهد. فحدَّق ورد أكثر بقمره، دون أن ينتبه لتضاريسه وجباله، ودون أن يفطن إلى أن القمر يشبه وجه إنسان! بل لاحظ مرةً أخرى، أن قمر عجلون يبدو مختلفاً:

- قمري يبدو أصغر! ربما تقلَّص من برودة الطقس!. فضحك الأب.

– هذا يا صـديقي، يذكّـرني بقـصّـة للكاتب الروسي (نيكولاي غوغول).

– أعرفه. أليس هو صاحب قصة المعطف الحزينة؟!

– نعم. أما القصّة التي تذكّرتها، فهي عن جندي من القوزاق، وهم قـومٌ أشـداء من السـلافيين الشـرقيين يقطنون في روسـيا وكازاخستان وسيبيريا. بعضهم لا يتمتع بكثير من الذكاء! فاستغرب

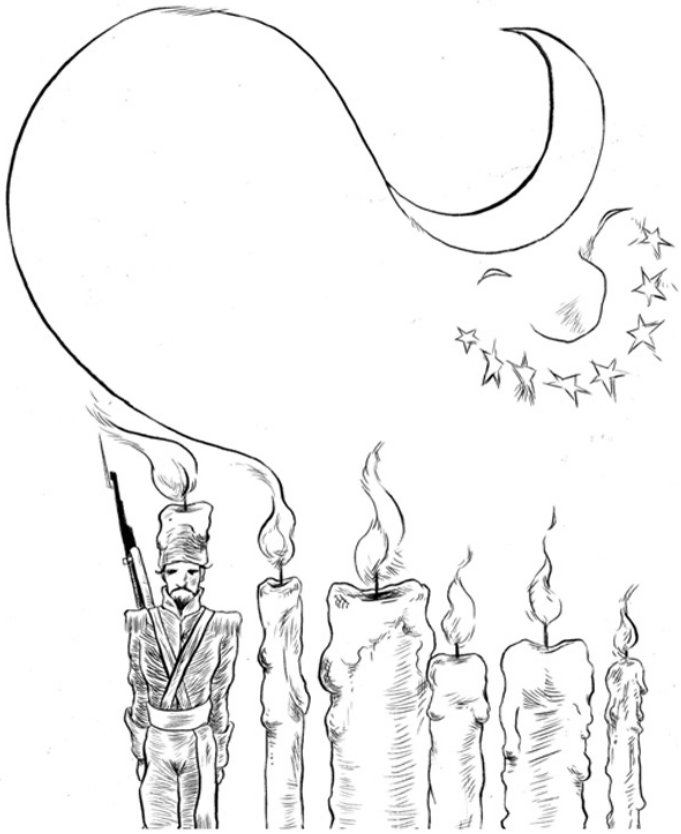

ورد، وحـزن، وشعـر للحظة، وكـأن أباه يلمّحُ بأنه غبـي، حينمـا رأى البدر صغيراً. لكنه تجاوز شعوره بسؤال:

– ثمَّ ماذا يا أبي؟!

– ذلك الجنـدي كـان يعـتـقـدُ أن الليلَ يطولُ في الشـتـاء، لأنه يتمدَّدُ بفضل حرارة الشموع والقناديل التي يوقدها النّاس.

– والنهار؟ لماذا يقصرُ برأي ذلك القوزاقي المبدع؟!

– بسـبب البـرد، فـالناس لا يوقـدون شـمـوعـاً، أو قناديل فيـه. وتابعا ضحكهما القوي.

كان ورد يريد أن يقـول لأبيه، إنه يرى القـمر أصغـر في عجلون. نعم، يراه صغيراً! وهذا ما يلاحظه منذ أشـهر. إنه يختلف عن قـمر عمان. لكن الغيمة السوداء باغتته وغطت قمره، كاتمةً نوره البسَّام.

ثمن الحياة

ما زالت نايا غاضبة من أخيها، ليس لأنه عاندها عندما طلبت منه ألاّ يرمي العلكة على الأرض. بل لأنه سخر من تمنعها عن أكل رأس الخروف. وقال بأنها لن تكون قويةً، وأنَّ مخَّها سيبقى صغيراً، إن لم تأكل من مخّ الخروف.

لكن الأمَّ، وقبل أن تقصَّ عليها حكاية الممحاة، طلبت منها أن تسامحَ أخاها، وتمسح أخطاءه، فهي تعرف كم هو طيّبٌ وحنون، وأنه لم يقل ما قاله، إلا من باب المناكفة والمزاح.

يُحكى أن ممحاة كانت إلى جوار قلم رصاص، في مقلمة طالبٍ نشيط، وذات حصة رياضيات. قالت بعد أن شعرت بالضجر:

– كيف حالك يا صديقي؟ فأجاب القلم بعصبية ونرفزة بأنه ليس صديقها!

– لماذا؟ مع أننا نعيش في بيت واحد، أقصد في مقلمة واحدة، وعملنا واحد.

– لأنني أكرهكِ.

– تكرهني أنا. ولماذا تكرهني؟ خير إن شاء الله !

– لأنكِ تمحين ما أكتب. فردت مبتسمةً:

– أنا لا أمحو إلا الأخطاء، وها أنت نشيط اليوم في

الرياضيـات، ولم أتقدّم لأمحـو شيئاً مما كتبت. لكنَّ القلم انزعج صائحاً.

- وما شأنكِ بأخطائي وصوابي؟

- أنا ممحـاة. عـملي أن أمـحـو، كـمـا أن عـملك أن تكتب.

وأضافت:

- فهل نسألك: لماذا تكتبُ؟

- المحو ليس عملاً، إنّه تخريب!.

- عملي نافع، مثل عملك تماماً، وليس تخريباً.

- أنت مخطئة، ومغرورة.

- لماذا؟

- لأن من يكتب أفضل ممن يمحو!

- إزالة الخطأ تعادلُ كتابةَ الصواب يا صديقي.

عندها أطرق القلم للحظة، ثم رفعَ رأسه، وكأنه عرف خطأه.

- صدقتِ يا عزيزتي! ففرحت الممحاة.

- أما زلتَ تكرهني؟ فأجاب شاعراً بالندم:

- لن أكره من يمحو أخطائي!

- وأنا لن أمحو ما كان صواباً. وهنا قال بحزن.

- لكنني أراكِ تصغرين، يوماً بعد يوم!

- لأنني مثلكَ تماماً، أضحّي بشيءٍ من جسمي، كلما محوتُ خطأً، كما أنكَ تضحّي بجزء من جسمك، كلما كتبت شيئاً.

- أجل. وأنا أحسُّ أنني أقصرُ يوماً إثر يوم!

- يا صديقي. لا نستطيعُ إفادة الآخرين والحياة، إلا إذا قدمنا تضحيةً من أجلهم.

– ما أعظمكِ يا صديقتي! وما أجملَ كلامكِ!
وهنا ضمت نايا أمها.
– وأنتِ ما أجملكِ يا أمي! سأمحو خطأ عمر وأسامحهُ.

(الشُبَّابةُ) ترعى الغَنَمَ

بينما كانت غيومُ السماء تغطِّي وجه البدر، وتحتشدُ متجمِّعة، وكأنها تتهيَّأُ لقصّة مطر، أو حفلة ثلج. كان عمر يشنِّفُ أذنيه على اتساعهما يستمع لحكاية الموسيقى والخروف.

يعرف الجدُّ أن حفيده يحبُّ القصصَ الشعبية أكثر من أخويه، ويدرك كم تعجبه المغامرات الشيّقة التي ترتبط بالمكان، ولهذا سأله قبل أن يبدأ:

- هل تعرف عين (أبو سليم)؟

- طبعاً أعرفها يا جدي، وياما شربتُ من مائها الطيّب! فأبي أخذنا إليها كثيراً. ولكني كلما سألتهُ عن سبب تسميتها يقول لي بأن أسألك. وأنا أنسى.

- أبو سليم كان رجلاً حسّاساً، يمتلك (شليَّة) أغنام وخِراف.

- وما معنى شليَّة؟

- أي قطيعاً كبيراً من الأغنام. وكان فناناً في العزف على (الشبَّابة). وهي أداة موسيقية نفخيّة تشبه الناي. فتذكّر عمر أخته التي أغضبها. وقال في نفسه.

- أحبكِ يا نايَ البيت وقيثارته.

أبو سليم كان غريباً عجيباً. فكل رُعاة الأغنام يتضجرون ويشكون من صعوبة الرعي إلا هو. وكانوا يستخدمون الحجارة

المقذوفة لسياقة القطيع أو توجيهه يميناً أو يساراً. فتدخّل عمر:

– وكيف كان يقودُ أبو سليم قطيعه ويسرح به؟!

– بالأنغام والموسيقى! كان يضرب لحناً على شبابته، فتفهمُ أغنامه الشيء الذي يريده.

– يا سلام! يبدو أن ألحانه كانت شجيّةً.

– أنا لم أسمعه، لكنَّ جدي قال بأنه حينما كان يترنّمُ على الشبابة، فإنه يستطيعُ أن يضحكك، أو يجعلك ترقص، ثم يبكيك، ويتركك تنام.

– يااااااه، كم هذا جميل يا جدي! إنه يذكرني بقصة قرأتها عن (الفارابي) وهو من أعظم عازفي العود في تراثنا.

– وذات يوم كان أبو سليم متجهاً إلى نبعة الماء بشليته، وقبل وصولها بعشرات الأمتار، وجد مجموعة من الشباب راهنوه بأنه لن يقدر أن يمنع أغنامه من الوصول إلى الماء بالضرب على الشبّابة. فاستغرب عمر قائلاً:

– ومن يقدرُ أن يمنع الخراف العطشى عن الماء تغبّهُ غباً؟ فردَّ الجدُّ بنبرة قوية:

– أبو سليم استطاع! فقد سحب الشُبابة من حزام حول خصره، وعزف لحناً لم تسمعه القريةُ من قبل. فاندهشَ عمر فاتحاً عينيه أكثر.

– الأغنام التي كانت منطلقة نحو الماء، تريد أن تطفئ ظمأها في ذلك الحرِّ الشديد. هذه الأغنام توقفت مشدودةً بلحن الشُبابة، وكأنَّ كلَّ واحدة رُبطت بحبل متين. ثم أخذت بالعودة البطيئة، إلى أبي سليم، وتجمّعتْ حوله. فصفّر عمر متعجباً:

– عظيم!عظيم!

– وبعدها غيَّر أبو سليم اللحن؛ فجعلها تتجه إلى شجرة البطم الكبيرة، وتهجع قاعدة تحتها بكل هدوء.

– يا له من فنان كبير! علّق عمر متعجباً.

– رغم هذا فقد ابتهج الشباب الذين راهنوه. فقد كسبوا الرهان كما قالوا. ولفتوا نظره بأنه خسر الشرط!

– انظر يا أبا سليم. هناك عنزة لم تستجب للحنكَ الشَّجيِّ، ولم تعد إليك، بل هجمت على الماء وشربته بشراهة كبيرة. فغضب

أبو سليم. وقال بثقة وتحدٍ:

– هذا العنزة لا مخَّ فيها! فلو كان فيها مخٌّ؛ لاستجابت للحني وشبابتي وعادت. وهنا راهنه الشباب مجدّداً:

– اذبح العنزة! فإذا وجدت فيها مخّاً، نكسبُ الشرط منك، ويكون عليك أن تشويها لنا على هذا الجمر. فوافق قائلاً:

– وإن كانت كما قلتُ لكم، أي إن كانت بلا مخٍّ، فستدفعون ثمنها. فوافقوا. سحب شبريته (خنجره) من حزامه، وسمَّى الله وكبّرهُ، وذبحها، ليجدوا أن رأسها فارغ تماماً دون مخٍّ. فضحك عمر مبتهجاً. وأكمل الجد:

– تعجَّب الشبابُ دهشة وتقديراً، ليس لقدرة أبي سليم على تحريك ورعاية أغنامه وخرافه بالشبّابة فقط. بل لقدرته على معرفة الخراف الغبيّة التي بلا مخ. وحينما همّوا بدفع ثمن العنزة، كما يقتضي الاتفاق. لم يقبل. بل سامحهم، وشوى لهم لحمها بعد أن حمد الله أن خلّص شليته من عنزة غبية.

– رائع يا جدي! رائع وجميل.

– ومن ذلك اليوم الذي يعود لأكثر من مئة عام. سمّى الناس نبعة الماء، التي شهدت الحدث (عين أبو سليم). وما زال أهلنا يتذكرون في أمسياتهم وسهراتهم، عازف الشبابة الرقيق الكريم، الذي كان يقود الأغنام بالموسيقى. رحمه الله.

شكر جده وتعجَّب كيف أن قصّةً بهذا الجمال، وبهذا المعنى الكبير، لم تتحول بعدُ إلى فيلم سينمائي؟ فرد الجدّ مبتسماً:

– هذا السؤال تحديداً، عليك أن توجهه إلى أبيك!

ونحن ندورُ معها

تغيّر الطّقسُ، ولم تُمدّد العطلةُ الشتوية كما كان يتمنّى عمر. فالثلوج تلاشت ولم يبقَ منها إلا القليل على جوانب الطرقات. ولهذا قام متثاقلاً في أوّل يوم دوام، وتشاغل مع بركة، التي أبت أن تُخرجَ رأسها. وقد همّ بإشعال نار لولا صوتُ أمّه.

- نعرفُ أنكَ تتلكّأ عن مدرستك. دع السلحفاة بدفء صدفتها!

العودة للمدرسة ممتعة سيما مع بقايا ثلج، تحت أشجار الحديقة، وعلى أطراف الساحات. ولهذا اشتعلت معارك حامية بين الصفين الثامن والتاسع لم يوقفها إلا جرس الطابور.

ولأن الثامن، صف المشاغبة والذكاء، كما تصفه مربيتهم، لا يحبّون أن يكون اليوم الأوّل من الدراسة منتظماً بشكل طبيعي. لذا يجرجرون المعلم أو المعلمة إلى أحاديث العطلة، بعيداً عن موضوع الدرس.

تبدَّدت الحصة الأولى حينما مهَّد مصطفى الطريق لكريم، ليبحر في حديث ممتع عن مغامرة الجيزة. ثم تلقّى معتز التهاني من زملائه بعودته من واشنطن، عاصمة الولايات المتحدة الأمريكية، وزيارة لأخيه. المعلّم هنّأهُ أيضاً.

- الحمد لله على السلامة. كيف كانت رحلتكم؟!

– جميلة. لكنّها متعبة وطويلة. طرنا أكثر من 15ساعة متواصلة، ولم نسترح إلا ساعةً واحدة في مطار (فاس سايس الدولي) في المملكة المغربية. فيندهش أحمد قائلاً:

– هل حلقتم فوق الغيوم؟! ورأيتم الشوارع خيوطاً رفيعة. والبيوت عُلبَ كبريت؟ فضحكوا لخفة دمِّ مهرج الصف كما يصفونه:

– بل غالبية طيرانهم فوق المحيط الأطلسي. قال ربيع بجديّة، ثم أضاف:

– لا بدَّ أنها مكلفة؟ فتجيب راية:

– أكثر من أجرة باص صويلح عمان!

– التذاكر غالية جداً، ولهذا لا نستطيع زيارة أخي دائماً.

المعلم الذي عرف أن الطلبة يخطِّطون لبعثرة وقت الحصة. تناول الكرة الأرضية، ووضَّح لهم خطَّ سير الطائرة التي أقلعت من مطار الملكة علياء الدولي، وطارت فوق أفريقيا إلى المغرب، ومن هناك تابعت رحلتها فوق الأطلسي حتى واشنطن.

فانفجر فارس مثل بركان.

– يوريكا! يوريكا!

– اسم الله عليك! وماذا وجدت يا عبقري؟. قال مصطفى.

– فكرة ستوفّرُ الجهد والمال. إنها سفر مجاني تقريباً!

– كيف؟ فوقف فارس وأمسك الكرة الأرضية موضحاً ما يفكر به:

– بما أن الأرض تدور، ففكرتي أن نستغل دورانها.

– كيف؟ هل ستجعلُ الأرضَ تديرُ محركَ الطائرات؟!

– سنستخدم طائرة عموديّةً للصعود في الجوّ. وبدل أن نطير باتجاه المكان، الذي نريد السفر إليه، نبقى ساكنين في الأعالي، حتى تدورُ الأرضُ، فيأتي المكانُ تحتنا، لنهبطُ إليه بسلام. عندها هاج الصف مصفقين هاتفينَ:

– رائع رائع! وبعد أن هدأ الصخب.

– فكرة جميلة يا صديقي. لكنها غير قابلة للتطبيق.

– لأن الأرض تدور، ونحن ندورُ معها. حتى الغلاف الجوي يدورُ معها.

– أي أنك ستهبط في المكان نفسه الذي أقلعت منه. وكأنك يا (أبا زيد ما غزيت). قال كريم بشماتة.

شكر المعلم فارس على فكرته الذكية. وبيّن أنها يمكن أن تكون قابلة للتطبيق، إذا خرجنا من الغلاف الجوي للأرض. ثم هبطنا إلى المكان الذي نريده.

وأكد بأن الخروج من جاذبية الأرض، أي خارج غلافها الجوي، مكلف جداً وصعبٌ، يحتاج إلى صواريخ، وطاقة كبيرة، تفوق ثمن تذاكر السفر بكثير.

أسنان عنترة العبسي

غضبت معلمةُ العلوم في أول حصتها. ليس لأن طلاب الثامن أبحروا في سرد مغامراتهم الساخنة مع رجال الثلج، الذين ملأوا أسطح وحدائق وشرفات عمان. ولم يزعجها، أنهم أرادوا معرفة أخبار بعضهم البعض، بعد عطلة نافت عن الشهر، بل يكمنُ غضبُها في شعورها الحزين، أن جهدها في التدريس يذهبُ هباءً منثوراً. فغالبية الطلبة يقولون:

- ذاب الثلج!

- الذوبانُ غير الانصهار يا شباب. ثم تهمس بهدوء صارم:

- الثلجُ لا يذوب. الثلج ينصهرُ. ومن المعيب أن طلبةً في عمركم يخلطون بين الحالتين.

- كتبتُ مسرحية خفيفةً، يا آنسة، ستجعلُ من يشاهدها يتوقف عن الخلط بين الانصهار والذوبان!

- حسناً يا ورد. مفيدٌ أن نستخدم الفنَّ عموماً، والمسرح خصوصاً، في خدمة العلوم وبلورة الأفكار وتثبيتها. فمتى يمكننا أن نشاهدها؟

- ستكون جاهزة في ظرف شهر، وسأبدأُ غداً باختيار الممثلين، وتصميم الملابس، وتجهيز الديكور، لنعرضها في الطابور الصباحي. فتدخّل كريم:

– ورد مسرحي بارع. فما زلتُ أذكرُ المسرحية الفكاهية التي أعدّها ونحن في الصف الثاني. فمن يومها لم أنم، إلا وقد فرّشتُ أسناني، لتبقى قوية كأسنان عنترة.

ثم قصَّ على الصّف مضمون القفشة المسرحية، وهي عن (عنترة العبسي) الشاعر الجاهلي –عاش قبل الإسلام– الذي رغب في الزواج من بنت عمّه (عَبْلَةَ)، لكنَّ أباها رفضه بحجّة أنّه أسودُ اللون، وابنته بيضاء.

وذات مرة هجم عنترةُ، وعضَّ كتف عمّه بقوة كبيرة، وكانت المفاجأة، أن العمَّ لم يغضب، بل فرح قائلاً:

– من أين لك هذه الأسنان القوية؟ ناصعة البياض؟ يا عنترة؟!

فيستلُّ فرشاةَ أسنان من حزام خصره، كأنها سيفٌ بتَّار. ويشهرُها في وجه عمه بقوة وتحدٍ:

– أنا أُفرِّشُ أسناني كل صباح ومساء بهذه يا عماه.

– حسناً يا عنترة. إن أعطيتني الفرشاة ومعجونها، فسأقبل أن أزوّجك عبلة. ففرح كثيراً. لكن عمّه أضاف بمرح:

– على شرطِ أن تكفَّ عن العضِّ. فالعضُّ ليس للشعراء، ولا للأطفال الأمراء الحلوين!

ابتهجت المعلمة بفكرة المسرحية التي سردها كريم بطريقته الضاحكة ولهذا أكَّدت من جديد:

– موعدنا بعد شهر يا ورد.

بيضة الزيتون

طلبت المعلمة من الصف، أن يتجهوا إلى مختبر الكيمياء مباشرة؛ كي لا تُفسحَ مجالاً آخر لتبديد الحصّة بأحاديث العطلة. وما إن أخذوا أماكنهم حتى لفتتهم عبارةُ (درسُ الكثافة) مكتوبة بخطٍّ ملوَّن على السَّبورة.

وقفت المعلمة وأمامها على الطاولة بيضةٌ، وملعقة صغيرة، ودورقان بهما ماء:

– من يعرف أيهما الماء المالح من هذين الدورقين؟ رفع صخر يده واتجه مبتسماً وتناول الملعقة.

– أتذوقه يا آنسة!

– أريد طريقة لا تعتمدُ على حاسة الذوق! فتدخلت روان وشرحت، بأنها ستُسخِّن الدورقين، وتراقب ترسب الأملاح فيهما.

– لكن الماء سيتبخر ونخسره؟!

فتقدمت مريم نحو المعلمة مشيرة بإصبعها إلى البيضة.

– أستطيع أن أعرف المالح بهذه! فتفاجأ الطلبة. فطلبت المعلمة منها أن تجرِّب. فأخذت البيضة، وأسقطتها في الدورق الأوّل. ففرقت.

– هذا ماء حلو يا آنسة. ثم تناولت البيضة من جديد، واسقطتها في الدورق الثاني، فطفت فوق مائه.

– وهذا المالح! فهو أكثر كثافة من البيضة.

وأثناء انشغال المعلمة بتوضيح معنى الكثافة، وكتابة معادلتها وطريقة حسابها، تذكر عليٌّ البحر الميت، وكيف طفا فوقه، وهو لا يجيد السباحة. وقد سره أن رأى بعض الناس يقرؤون مجلة، وهم يسبحون باسترخاء على ظهورهم.

– بحر عجيب! قال في نفسه مبتسماً، فتنبهت المعلمة إلى شروده:

– أين أنتَ يا عليّ؟

– في البحر الميت يا آنسة، أسبحُ مثل البيضة فوق مائه المالح.

فضحكت طالبةً منه أن يُشركَ زملاءه حتى في أفكاره المملحة.

وخلال المناقشة، شرح ورد، كيف أن أمَّه، ما زالت تستخدمُ البيضة، كمقياس دقيق لضبط عملية (كبس) أو تخليل الزيتون. وأكدت المعلمة، أنها طريقة صحيحة، فالتخليل يحتاج إلى كمية مناسبة من الملح ليتم حفظه.

– أمي تقول بأنها ورثت الطريقة عن جدتي. فالبيضة حينما تطفو في الماء المالح مباشرة، دليل ملاءمته للتخليل. فقالت حلا مبتسمة:

– نريد زيتوناً عجلونيّاً مخلّلاً بطريقة البيضة، كي نتأكد من جودته. فنحن لا نحكمُ على غائب!

أن نبقى قلباً واحداً

بين الحصتين تذكّر ورد قصّة أبيه مع البيضة، عندما كان الأب طفلاً في الصف السادس، وتحديداً وهو يتجهّز لرحلة كشفيّة، يرافقه أخواه. وكيف أن أمّه علّمته حكمةً ما زالت ترافقهُ حتى الآن.

- نحن نتعلّمُ من بيضة!

ففي ذلك الصباح، كان الصَّخبُ يملأُ البيت، فأخوه محمد فقد فردةَ حذائه، وانحشر تحت السرير يبحث عنها. وهو كان يجهزُ الحبال ويتأكّد من دقة البوصلة، ويترنّم بأناشيد الرحلات. بينما الصغير سمير يتضورُ ضجراً بانتظار نضوج البيض.

- هل نضج يا أمي؟! أيكفي؟ فسألتْ عن الوقت الذي مضى منذ غليان الماء.

- لستُ أدري. استعجلي يا أمي، فالحافلة ستصلُ في أية لحظة. فما كان منها، إلا أن أطفأت النار، وأخرجت البيضات بالملعقة.

- كيف يمكننا أن نعرف أن البيضة قد نضجت؟! سألت الأمّ.

- أرجُّها رجّاً عنيفاً، وأتسمّعُ صوتها! قال محمد بسرعة.

- أكسرها! قال سمير غاضباً. عندها قالت بهدوء:

- ندوّرُ البيضةَ بسرعة على هذه الأرضيَّة الرُّخاميَّة؛ فإذا

توقفتْ مباشرةً تكون ما زالت نيئةً، وإذا استمرت في الدوران فهي ناضجة.

أخذ محمد بيضة وأدارها، فاستمرت بالدوران بسرعة كبيرة.

– هذه ناضجة. إنها لي! وعندما طلب من أمه، أن توضّح الأمر. سألته:

– ماذا تحتوي البيضة؟! فقال:

– محٌّ وآحٌّ، أعني بياضاً وصفاراً.

– صحيح. وكيف تكونُ حالتهما قبل النضج؟

– السيولة.

– فإذا دوّرنا البيضة فإن السوائل تستجيبُ للحركة، في كلٍّ

الاتجاهات بشكل عشوائي. أي أن كل جزيء سيتحركُ في اتجاه؛ وبالتالي فإن كلَّ حركة ستلغي الحركة التي تعاكسها.

- يعني أن البيضة النيئة ستتوقف بسرعة!

- وعند النضج تصبحُ كتلةً واحدةً، فتتحرك حركة واحدة، باتجاه واحد؛ مما يجعلها تستمر في الدوران. عندها وصل الباص مطلقاً زاموره.

- أريدكم مثل البيضة الناضجة يا أولاد؟! فصرخ سمير فرحاً:

- سنبقى قلباً واحداً، وكتلةً واحدة، وعملاً واحداً، وحركة واحدة، حتى نعود سريعاً إليك. فضحكوا راكضين نحو الحافلة التي صدح زامورها فتنبه وردٌ من شروده القصير:

- علينا أن نبقى قلبا واحداً! كم أنت عظيمة يا جدتي!

ذيلُ الزيت

يبدو أن درس الكثافة يولِّد أفكاراً كثيرة في عقول الطلبة، فحلا جاءت في اليوم التالي مبتهجةً، رغم سهرها على كتابة قصة مثيرة، وافق معلم اللغة العربية أن تقرأها على مسامع زملائها.

يلهثُ ثلاثة فئران بانت عليهم آثارُ الإعياء والتعب. الفأر سرحان اشتكى موجوعاً:

- عصافير بطني تصوصو. فأشار خربوط:

- سندخلُ ذلك البيت المهجور، علّنا نجدُ شيئاً نأكله.

في البيت وجدوا زجاجةَ زيت، على طاولة خشبية مهترئة. فهتف فهمان:

- هذا سيشبعنا. فردّ سرحان:

- لا أحبُّ الزيت. ولكنَّ الجوع (عاطل).

خربوط المتلمظُ جوعاً قال بحيرة وارتباك:

- كيف سنشربه؟ هل سنسكبهُ لنلعقهُ؟!

- إن سكبناه ستمتصُّهُ الطاولةُ قبلنا.

- سنستخدمُ عقولنا!

صنعت الفئران سلماً خشبيّاً، أسندته إلى الزجاجة، ثم أدخل فهمان ذيله الطويل، وغمسه في زيتها، وأخرجه ليلعقه بلسانه كحبة بوظة.

- ما أطيب الزيتَ على جوع!

تناوبوا على سحب الزيت بذيولها، حتى ظهرت علامات الحسرة عليهم.

- لقد انخفض الزيتُ، ولن تصله ذيولنا! عندها أجاب فهمان بسرعة.

- سنرفعه بالماء!

- ستفسِدُ طعامَنا بالماء.

غاب فهمان قليلاً، وعاد بملء فمه ماءً، وصبّه في الزجاجة، فارتفع الزيتُ قليلاً. ثم طلب من أخويه أن يحذوا حذوه.

ومع كل صبّة ماء، كان الزيتُ يرتفع بالتدريج حتى وصل إلى مستوى سمح لذيولهم بتناوله.

- أرايتم يا شباب؟ لقد ارتفع الزيت دون أن يختلط بالماء. الزيت أقلُّ كثافةً من الماء. عندها هتف خربوط وسرحان معاً:

- أكملنا وجبتنا بفضل ذكائك. شكراً أيّها الذكي!

صفّق الصّفُ لحلا التي كتبت قصّة تصلح فيلماً كرتونياً، مستخدمة معلومة صغيرةً عن الكثافة، واختلافها بين المواد.

(شلمونةٌ) أخرى

بعد أن خمدت موجة التصفيق، وقف ورد مندهشاً:

– سبحان الله، أنا كنتُ لا أؤمنُ بتواردِ الخواطر، أي أن يفكّر شخصان بالشيء نفسه في الوقت ذاته إلا اليوم.

– كيف؟!

– يبدو يا أستاذ، أن درس الكثافة، لم يجعلني أتذكّر قصَّةَ أبي مع البيضة عندما كان صغيراً، وكيف علمته درساً في الاتحاد مع أخويه، بل إنَّ الكثافة جعلتني أسهرُ حتى ساعة متأخرة، لأكتب قصة طيور عطشى في الصحراء.

– يبدو أن الصفّ الثّامن عاد مجدّداً لأساليبه في تحويل الحصة إلى دردشة. ولكنَّها على كلِّ حالٍ دردشةٌ مفيدةٌ، نتعلَّم منها. فقالت حلا:

– يعجبني أن أسمع قصة البيضة!

– سأكتبها على صفحتنا. وسأقرأُ الثانية بعد إذن أستاذنا.

طيور مهاجرة على شكل رأس سهم، فوق صحراء واسعة، تطير لاهثة وقائدها يحثّها على الصّبر.

– لقد تعبنا سنموت عطشاً.

– قريباً سنجدُ الماء، إن طرنا بهمة عالية. وهنا يصرخُ طائر بفرح:

– إني أرى بِركة ماء تلمعُ. لكنَّ القائد قرر بهدوء:

– للأسف يا عـزيزي، هذا سـراب. أنتَ لم تعـرف بعـد كـيف تخدعُنا الصحراءُ؟ فتابعت الطيور حتى حطّت على جبل صخري عار من الأشجار.

– لا تبتعدوا، سنستأنف رحلتنا قبل الظلام.

هكذا قال القائد لرفاقه الذين فتَّشوا عن شيء يؤكلُ فوق هذا الجبل الأجرد، قبل أن يهتف طائر مبتهجاً:

– يا سيدي القائد، وجدتُ الماء، أراه يلمعُ في هذا الشَّقِّ، إنّه حقيقي، وليس سراباً.

– أكيد. السَّرابُ لا يتكوّن بين الصخور.

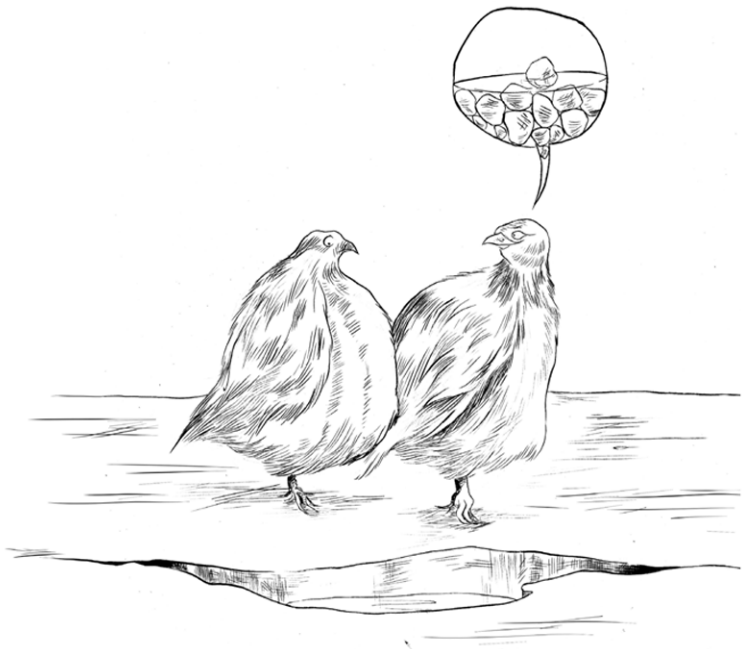

هجمت الطيور بسرعة وفوضى محاولة أن تدسَّ رؤوسها في الشَّقِّ لتصل للماء دون جدوى.

- لا نستطيع الوصول إليه. إنه بعيد، ولا نستطيع أن ندخل رؤوسنا. سنهلك عطشاً. فاقترب القائد، ونظر إلى الماء:

- سنرفعه إلينا! فهمس طائرٌ لرفيقه:

- كيف سيرفعُ الماءَ؟ وليس معه مصّاصة، أو (شلمونة)، ولا حتى خرطوم أو (بربيش)!

- أريد حجارةً لنرميها في الشَّقِّ. وستشربون!

فهبَّت الطيورُ بنشاط تحمل بمناقيرها حجارتها، وتلقيها حيثُ أمر القائد.

- هيّا يا إخوتي، لم يبقَ إلا القليل. إنه يرتفعُ إلينا بالتدريج!

وما هي إلا دقائق حتى وصل الماء إلى مستوى قدرت الطيور على الوصول إليه، فشربت: واحداً، واحداً. وكلما انخفض الماء أسقطوا فيه حجارةً أخرى.

- الحمدُ لله. ارتوينا.

- هذا بفضل ذكاء القائد!

- الفضل للحجارة وكثافتها الكبيرة!

من يهزأُ بي وراء الجبل؟!

الأرض في آذار عـروسٌ بعبـاءة خضـراء مـزركشـة بالدحنون والإقـحـوان. في آذار تتطاير الفـراشـاتُ في الأرجـاء. فـيـخـيَّلُ لمن يراقبها، وهي تحطُّ على تيجان الأزهار، بـأنها أزهارٌ أخرى. ويخيَّلُ إليكَ إذا تابعت الفراشات الطائرة، بأنها أزهارٌ محلّقة في السماء.

اعتادت العائلاتُ، أن تقوم بمشاوير ممتعة، في هذا الشهر، سيمـا وأنّ شتـاء هذا العـام كان طويلاً بارداً. وها هي نايا تلاحق فراشـاتهـا؛ معتـقدةً أنّهـا أزهارٌ طائرة، فـتبـتعـدُ عن العائلة، التي تستظل بشجرة بلوط طاعنة في العمر. وهي كالعادة لا تستجيب لطلب أمها بأن تبقى في نظر الجميع.

يعـجبُ نايا أن تـلاحق الفـراشـات، وحين تفـشلُ في مـسكهـا، تنتقي ورداً تشبهها، وترتِّبها على شكل باقات.

- هذه الحمراءُ لأبي!

زارت العـائلة ارميمين القريبـة من العـاصمة، وتمتّعت بشـلالها العـالي، لكن القـمـامـة كـانت سـيـدةَ المكان. وزاروا جـبـال جلعـاد والعـالوك ووادي الشتـا، قـرب بيـادر وادي السيـر، وعندها قـرأ الأبُ أبيـاتاً من قـصـيـدة شـهـيـرة لشـاعـر الأردن مـصطفى وهبي التل (عرار):

ليت الوقوفَ بوادي السَّير إجباري

وليت جارك يا وادي الشتا جاري
لعلني من رؤى وجدي القديم به
أرتادُ مسَّاً لجنياتِ أشعاري

واليوم يممت العائلةُ شطر وادي شعيب القريب، من مدينة السلط، وسمي بهذا لوجود مقام لنبي الله شعيب عليه السلام خطيب الأنبياء. فوفّر لهم المكان الدهشة بكامل زينتها.

لاحق عمر فراشةً كبيرةً أعجبته، وصمَّم أن يلقي القبض عليها، بحجّة تقمُّصها دور زهرة السوسنة السوداء. وورد أغمض عينيه تحت شجرة سنديان؛ ليستمتع أكثرَ بزقزقة العصافير.

- لا يمكننا أن نتلذَّذُ بالموسيقى إلا بالعين المُغمضة!

لكنه فتحهما بسرعة راكضاً نحو صراخ نايا التي تلبستها علامات الغضب والفزع.

- أحدهم يسخرُ مني خلف الجبل!

- من ذا يجرؤ ويسخرُ من زينة الزينات؟ قالت الأمُّ، فيما احتضن الأب ابنته ليهدئ من روعها.

- لا تخافي.

التقط عمر مضرب التنس طائراً إلى المكان، الذي أشارت إليه.

- سنلقنه درساً، لن ينساه أبداً. أين من سخر منك؟!

أمام جبل عالٍ، فوقه قليل من أشجار البطم والسنديان، أشارت:

- الجبان يختبئ هناك. ثم نادت بصوتها العالي الرخيم:

- نايااااااااااااااااا. فردّ الجبل بالصوت ذاته.

- نايااااااااااااااااااااا.

تبادلت العائلة الابتسامات في ما بينها.

- أسمعتم؟ إنه يقلدني، ويهزأُ بي، ولا أرى أحداً منكم يهبُّ ويقبض عليه! أنت يا عمر فقط تتشاطر على الفراشات. وهنا حمل الأب ابنته، ونادى بأعلى صوته:

- باباااااااااااااااا. فرجع الصوت.

- باباااااااااااااااا، فزاد غضبها.

- أسمعتَ يا أبي؟ إنّه يسخر منك أيضاً!

- لا يا حبيبتي، هذا (صدى صوتكِ). الجبلُ لا يُسخر من أحد.

فيبتسم ورد، ويقول بأن كلَّ الأطفال في مثل هذه السنِّ تأتيهم هذه الأفكار.

- أتذكرُ يا أبي، حينما جئتكَ باكياً، لأن أحدهم سخر مني عند وادي الطواحين في عجلون؟

- وهل تذكرُ ما قلتهُ لكَ؟

- بالطبع يا أبي، وسأعيده لنايا الآن. فتدخّل عمر:

- كلنا يعرفُ الحقيقة. فموجاتُ صوتكِ يا أختنا الخوّافة حينما تصطدمُ بالجبل تعود إليك؛ فتسمعينها.

- مثلما تعودُ الكرةُ المضروبةُ بالحائط! وهنا تنادي العائلة بصوت واحد:

- نايااااااااااااااااااااااااااااا، فيجيب الصّدى.

- نايااااااااااااااااااااااااااااا.

وطنُ الفراشة

قبل الغروب لملمت العائلةُ أغراضها، وتحفزت للانطلاق. دون مساعدة عمر، الذي كان منشغلاً بأمر يحرص على ألا يراه أحدٌ. فعلى ما يبدو، أنه سجنَ الفراشةَ في إبريق الشاي الفارغ.

– كلُّ شيء على أتمّ وجه يا أبي. قالها وهو يغلق صندوق السيّارة.

انطلقوا نحو عمان، وما إن وصلوا شارع الستين، المطل على الأغوار وسهولها، حتى اقترحت الأم أن يقفوا لبعض الوقت، لالتقاط صور للشمس الغاربة.

– الشمسً ساحرةٌ. إنها عنقود أو (كمشة) من النجوم.

– فضحكوا وهم يتذكّرون حكاية ورد مع شمسه الغائبة، وكيف أقنعته الجدة أنها ستنفرط وتتحولُ إلى نجوم تزيّنُ الليل.

حينما كانوا يتأملون المشهدَ الخلاَّبَ للشمس تختفي وراء الأفق، باح عمر بسرِّ الفراشة لأخته، وأخبرها بأنه سيأخذها معه للمدرسة.

– ستبهرُ كلَّ طلبة الصف!

في الطريق حملت نايا بحماسة لوحتها الملونة التي تحتفظُ بها في السيَّارة وقالت:

– ألّفتُ أغنية وأريدكم أن تسمعوها.

– أرجو ألا تكون عن خوفك من صدى الصوت.

يُعجبني
أن أرسمَ نخلةً
فوق النخلة
ترقصُ نحلة.

تحت النخلة،
يلهثُ أرنبٌ.
يقرضُ جزراً،
لا،
لا يتعبُ.

فأرٌ أحمق
يوقدُ ناراً.
وهنا قطٌ
أين المهربُ؟

تعجبني
هذي الألوان.
تبدعُها
ريشةُ فنان.

– وأنا يعجبني صوتُك يا فراشتي، قال الأب مبتهجاً ثم أضافت الأم:

– وهبنا الله فتاةً جميلة الصوت. أنت حقاً قيثارة الدار! فشعر عمر بالغيرة من أخته، فهمس في أذنها:

– سأقول لك سرَّاً. صوتُك ليس جميلاً! لكنهم يجاملونك. فغضبت باكية:

– وأنا سأخبرُ أبي بسرِّ الفراشة!

توقفت السيَّارة، وقد وصلوا إلى منطقة الكمالية، قُبيل مدينة صويلح، قرب متحف ودارة رئيس وزراء الأردن الأسبق وصفي التل.

– ما حكاية الفراشة؟! فردّ متلعثماً شاعراً بفداحة فعلته:

– اصطدتُ فراشةً، وهي في إبريق الشاي. فحزنت الأمُّ ولامته على فعلته:

– أيليق بإنسان عطوف أن يسجن فراشةً في إبريق؟!

كان الليل قد بدأ يرخي بسدوله وعتمته تعمّ السماء عندما استدارت السيّارة عائدة إلى وادي شعيب الذي يبعد حوالي 10كم، بعدما تحقّق الأب من أن الفراشة ما زالت حيةً.

– لماذا عُدنا يا أبي؟ قالت نايا وهي تحاولُ أن تلطِّف جوَّ العائلة المُكهرب.

– هل تريدُ أن تلقِّن (صدى الصوت) درساً في معنى الأخلاق؟!

– بل لندرك معنى الوطن!

– لم أفهم يا أبي؟! فقال ورد:

– أتحبينَ أن يأخذك أحدٌ بعيداً عن وطنك وأهلك وبيتك؟!

سيطرَ صمتٌ كبيرٌ على العائلة التي ما إن وصلت المكان الذي كانوا فيه قبل ساعة، حتى فتح الأبُ صندوقَ السَّيَّارة، طالباً من ابنه أن يطلقَ سراح سجينته في الموضع الذي اصطادها فيه.

مع تحرر الفراشة التي اختفت ألوانُها في سواد الليل، سقطت دمعةُ اعتذارٍ كبرى من عين عمر، ووحده صوت نايا ثقب سكون المكان:

- عودي إلى بيتك أيّتها السوسنة الجميلة! عودي إلى وطنك! ولا تخافي من صدى الصوت. وسامحي عمور.

أغنيةٌ بفمِ التاريخ

لم يبهج وردٌ أن القائد الكشفي في مدرسته، اختاره للمشاركة في التَّجمّع، الذي تقيمه وزارة التربية والتعليم، في معسكر الكرامة في الأغوار الجنوبية، احتفاءً بذكرى معركة الكرامة. بل ابتهج أكثر؛ لأنه طلب منه، أن يجهِّزَ نفسه لإلقاء كلمة المشاركين في حفل الافتتاح.

النزول إلى الأغوار في هذا الموسم الربيعي يُشكِّلُ إضافةً جمالية ليوم يزخرُ بالمناسبات. فالحادي والعشرون من آذار، هو عيد الأم، ويوم الشِّعر، وذكرى الكرامة. قبل وصولهم إلى المخيم توقفوا عند النّصب التذكاري للجندي المجهول الذي أقيم تخليداً لتضحيات شهداء تلك الموقعة الباسلة.

أخذوا صوراً مع الجندي الذي يحملُ بندقية، ويشيرُ بيده غرباً نحو فلسطين المحتلة. ثم تابعوا طريقهم مروراً ببلدة الكرامة التي سمّيت المعركةُ باسمها.

ترجَّلوا من الحافلة؛ ليشاهدوا آثار طلقات الرّصاص على مئذنة الجامع، التي تُركت بلا ترميم، ذكرى ماثلة للزمان. وفي المعسكر توزعوا إلى طلائع. وهي مجموعات لكلٍّ منها عريفٌ أو قائدٌ. فصحيح أن هذا التّجمّع، ليس إلا ليلتين، إلا أن الأعرافَ الكشفيّة، يجب أن تطبّق بدقّة. وبعد أن عرفت كلُّ طليعة خيمتها

وواجبها، تناولوا غداءهم، وانصرفوا لوقت راحة، بانتظار حفل الافتتاح.

ورد الذي استعان بأبيه ليضبط كلمته ويحسِّنها، استعدَّ على قراءتها مُجدّداً. فخلا بنفسه في الخيمة، وأخرج مرآة صغيرة من حقيبته، وقرأ لها بصوت عالٍ، كعادته في جولات التدريب.

لم ينتبه إلا على الصّافرة الكشفيّة. ففي المخيمات تكون هي وسيلة النداءات. وبما أنها واحدة طويلة تتبعها ثلاثُ صافرات قصيرات، فهذا يعني أن على الطّلائع، أن تتجمّع.

حول السّارية وقف الكشّافةُ بدائرة واسعة. قائد التجمّع بجوار وزير التربية، الذي وصل يرافقه بعض الضيوف، فعزفت الموسيقى السلام الملكي، ليرتفعَ العلم بسرعةٍ خفّاقاً حتى قمة السّارية. فيما أدى الكشافة تحيتهُ براحة اليد اليمنى مضمومةَ الإبهام والخنصر.

بعد تلاوة آيات من القرآن الكريم، تحدّث القائدُ عن هدف التجمع، والبرنامج الذي سينفِّذه الكشّافة. ثم تكلّم الوزير عن أهيمة إحياء ذكرى معركة الكرامة. وبعدها تقدّم ورد لإلقاء كلمته بعد أن أدى التحية للعلم وتأكّد من جاهزية مكبّر الصوت بنقرة إصبع.

بسم الله الرحمن الرحيم

وزير التربية والتعليم المحترم

أيّها الضيوف الكرام.

الرفاق الكشّافة.

السّلام عليكم ورحمةُ الله وبركاته.

هذا يوم جامعٌ حاشدٌ، يختلطُ فيه نوَّارُ الشجر بعبق الشِّعر

وروحه وبهائه. ويمتزجُ فيه بوحُ القصائد، بباكورة الربيع واعتداله. هذا يومٌ يتماهى فيه الدحنونُ مع دماء الشهداء، حينما سَجّلوا في صفحات المجد سِفرَ بطولة وتضحية وخلود.

أيّها التجمّعُ الكريم.

في ذلك اليوم المجيد من شهر آذار عام 1968م، امتزجت قُبلتان. قبلةٌ يطبعها جنديٌّ على يد أمه، وهو يهرعُ إلى الجبهة. وقبلةٌ تهمسُها الأمُ على جبينِ الشهيدِ، حين يُزفُّ محفوفاً بالزغاريد. هكذا نحنُ شعبٌ يودِّعونَ شهداءهم بالزغاريد، وبوعدِ الوفاء، وعهدِ البقاء، على قيد العزم.

كان صوته مُجلجلاً. ولهذا قطعتْ كلمته صفقاتٌ كشفيّةٌ مدويّة أطلقها رفاقهُ بحماسة كبيرة.

في الشارع الرئيس من بلدة الكرامة، وقفنا قبل ساعات عند مئذنةٍ ما زالت تشمخُ في فضاء الحقِّ نبراساً يهدي العابرين. مئذنة تحملُ في جنباتها بصمات الرّصاص، وهي الشّاهدة بتكبيرها، في فجر ذلك اليوم الأغر، عندما تصدَّى جنودُنا البواسلُ للصهاينة المعتدين، بكلِّ بطولة وإقدام.

المئذنة والمعركة والدحنون، كلها ستظلُّ شواهدَ لأبد الدهر، أننا كسرنا توقعاتِ العالم، من أن جيش العدو الإسرائيلي، جيشٌ لا يُقهر، ولكننا قهرناه، وهزمناه، وسطَّرنا قصيدة الكرامة، أغنية بفم التاريخ وأسماعه.

الماءُ حارسُ الحلوى

نالت كلمةُ ورد استحسان زملائه في الطليعة، وقائده الكشفي الذي أخبره، أنَّ الصحافة ستنشرُ بعضاً منها، وستأخذها كاملةً مجلةُ (رسالة المعلم) الصادرة عن وزارة التربية والتعليم.

الجوُّ حارٌ نوعاً ما. وليس كأجواء عمّان، التي تميلُ للبرودة عند المساء. لكن الحرارة لم تزعج ورداً. النمل أزعجه وأزعج رفاق طليعته، التي حملت اسم (خالد بن الوليد). النمل أزعج المخيم وأثار غضب الكشافة، وسبّب لهم نفوراً شديداً. فلسعته قويّة لا تُنسى.

فأينما ذهبتَ، سترى نملاً أسودَ سريعاً: في المطبخ، في الخيمة، في الملعب. حتى إن نملة كبيرةً، كانت تعضُّ ساق ورد، وهو يلقي كلمته، دون أن يجرؤ على التألّم، أو على إبعادها.

المعسكر محاط بأشجار السرو العالية، وفيه صفان طويلان، في كل صفٍّ ثماني خيام. فيما أشجار (الجكرندا) والمروحة والزنزلخت، التي ما زالت في أوّل توريقها، تشمخُ لتودِّعَ شمساً تتحضّرُ للغياب، خلف تلك التلال التي شهدت المعركة.

بعد برنامج نشاطات حافل، أخذت الطلائع تجهّز لحفل السمر، وهو عُرفٌ لم تتخلَّ عنه الحركةُ الكشفية، منذ تأسيسها على يد البريطاني (بادن باول). فطليعة خالد بن الوليد، التي

انسجمت في ما بينها بسرعة كبيرة، اقترح فيها الكشاف وسيم، أن يعدُّوا (استكشات) ومقاطع مسرحية طريفة، فهذا النوع من المشاركات يلاقي الاستحسان، ويرفّهُ عن الكشّافة.

- نريد شيئاً خفيفَ الظلِّ!

في حفل السمر، ألقى الكشّافة قصائد تغنّت بالمناسبة، وعُرض فيلمٌ قصيرٌ عن المعركة، أعدته طليعة الكرامة، وقرأ كشاف ذو صوت هادئ من مدينة العقبة، قصةً مؤثرةً عن جندي قطع إجازته، والتحق بالجبهة وهو عريس، ونال الشهادة في سبيل وطنه.

المسرحية التي أعدتها طليعة خالد بن الوليد، كانت لشخصين، أمام كل منهما دلوٌ بلاستيكي. الأوّل أخذ من دلوه حفنة ماء ورشق الآخر، ثم هرب ليختبئ بين الجمهور. فحمل الثاني دلوه راكضاً خلفه. وما إن رفعه، حتى غطّى الجميعُ رؤوسهم؛ خشيةَ أن يصلهم الماءُ، لكنَّ الورود تطايرت فوق الذين فرحوا بهذه المفاجأة غير المُبلَّلة.

كلَّ لحظة كان يئنُّ أحدُ الكشّافة، فالنمل يمارسُ هوايته الوحيدة بشكل قوي: القرص والعضَّ. وكلما تذمّر أحدٌ، كان القائد يصبِّره، فالمخيّمُ قصير، وعلينا أن نتأقلم مع هذا الشريك.

وكنوع من التحدّي، أعطى قائد التجمّع، في نهاية حفل السّمر، كلَّ طليعة قطعةَ حلوى (حبة بقلاوة). قائلاً بصوت عالٍ:

- سأقدِّمُ هدية للطليعة التي تستطيع أن تحمي هذه البقلاوة من النمل، فقال كشافٌ ضاحكاً:

- نحن يا قائد، لا نستطيع حماية أنفسنا منه، فكيف تريدنا أن نحمي الحلوى؟!

– الأمر بحاجة لذكاء أيّها الكشّاف!

اتجهت الطلائع إلى خيامها. فلكل طليعة خيمتان، ينام في الواحدة أربعة كشافة. عريف طليعة خالد بن الوليد الكشَّاف زياد خطاب، قال بأنَّ عليهم الحصول على الجائزة. وأيَّدهُ وردٌ:

– سننتصرُ على النمل، ونصدُّ جيشه، كما صددنا العدو الإسرائيلي وأطماعه قبل 45 سنة.

الطلائع حارت بقطعة البقلاوة. فطليعة جعفر الطيّار اتفقت على تعليقها بخيط يتدلّى من سقف الخيمة.

– لن يصلها النّمل، مهما فعل.

طليعة صلاح الدين الأيوبي، قرّرت دفنها في الأرض، كي لا ينال منها النمل. وطليعة أسامة بن زيد تقاسموها في ما بينهم، فبكلٍّ تأكيد لن يصلها النَّمل وهي في بطونهم!

في الصباح الباكر، وقبل مراسم تحيّة العلم، كان القائد الكشفي يمرُّ على الطلائع: طليعةً، طليعةً. وأوّل مرور له على طليعة أسامة بن زيد الذين ضحكوا بأن الحلوى في بطونهم بكل أمان.

النمل العنيد وصل إلى البقلاوة المعلّقة. كان هناك خطٌّ طويل من النمل تولّى نقلها، دون أن يترك أثراً.

– فكرتكم قوية. لكن النّمل أقوى.

الحلوى التي في التراب وصلها النّمل، ونقلها أو أكلها، ربما قبل أن ينام الكشافة. وحينما وقف القائد أمام طليعة خالد بن الوليد، وجد حبةَ الحلوى تتربعُ بكلِّ وقارٍ على طاولة صغيرة وسط الخيمة.

– ما شاء الله! كيفً استطعتم حمايتها؟ فأجاب عريفُ الطليعة:

– وضعنا كلَّ رجلٍ من أرجل الطاولة في صحن ماء.

نظر القائد فوجَدَ تجمعاً من النمل قربَ الصحون يتهيب من اقتحام الماء.

– النمل لا يجيدُ السِّباحة! قال أحدهم وأضاف:

– ورد صاحبُ الفكّرة. فقد قال بأنّنا سنحمي الحلوى بالماء.

– أُحيّيكم. لقد فزتم بالجائزة.

عندها تذكّر ورد بفخر كيف استطاع جدُّه، قبل أشهر قليلة في حقول (البَديَّة)، أن يستردَّ القمحَ بالماء، وينتصر على النّمل!

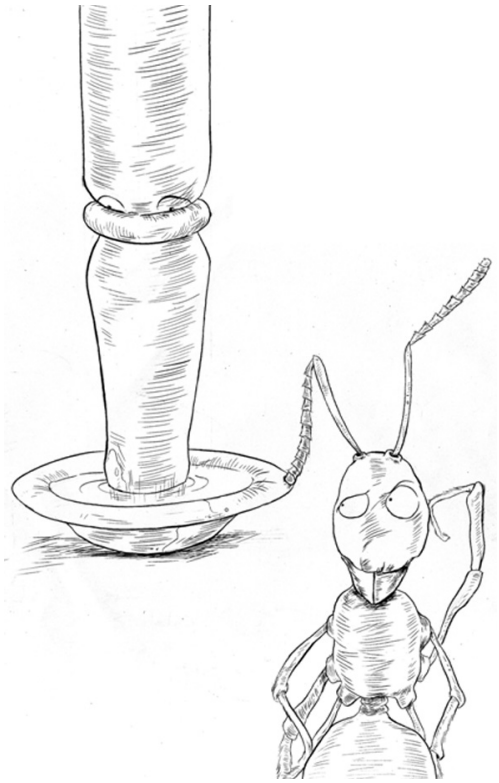

أسهلُ من اكتشاف أمريكا

بعد تحيّة العلم اثنى القائدُ على كشّافة التجمّع، حسن انضباطهم، ومدح عمق تعاونهم، ثم قدّم كأساً وعلبة بقلاوة كجائزة لطليعة خالد بن الوليد التي حفظت حبة الحلوى من جيوش النّمل. وشرح الطريقة التي اتبعوها لصدِّ هجومه القوي.

خلال تناول الإفطار. قلّل بعض الكشافة من شأن الفائزين. فقال كشاف من طليعة أسامة بن زيد، وهو صاحب اقتراح أكل حبّة البقلاوة لحمايتها:

- كلنا يعرفُ أن النَّمل لا يجيد السِّباحة. وأننا إذا غمرنا أرجل الطاولة بالماء، سنمنعُ وصوله إلى حبة البقلاوة.

- وما منعكم أن تفعلوا؟! أم أنكم فضلتم حفظها في بطونكم الكبيرة! وكادت المحادثة تنقلب عِراكاً، لولا تدخّل عريف الطليعة بإبعاد رفيقه.

حين كان الكشّافة يتهيَّأون لدخول قاعة المحاضرات، للقاء قائد عسكري، سيشرحُ مجريات معركة الكرامة، اقترح ورد أن يؤدّبوا الذين سخروا من ذكاء طليعتهم بطريقة أذكى، فتساءل الكشّاف باجس:

- هل سنضربهم بعد حفل السمر؟!

- سنقدِّمُ مسرحية تجعلهم يعرفون أن الأفكار متاحةٌ للجميع.

لكنَّ الصُّعوبة في أن تجدها، وتوظِّفها بشكل مفيد. الأفكار تطير في الهواء، والذكي من يلتقطها!

عريف الطليعة أبلغ قائد التجمّع، بأن طليعتهم ترغبُ بتقديم مسرحية في حفل السمر، وأنهم يحتاجون لبعض الديكور والملابس والطعام. فرحّب بالفكرة، واعداً بتوفير ما يلزم.

كان ورد كتب المسرحية ليقدِّمها في حفل نهاية السنة في مدرسته. وقرّر أن يعرضها كتمرين هنا، فعمل طيلة ما بعد الغداء، على تدريب رفاقه على أدوارهم، التي حفظوها بسرعة عجيبة؛ فالنّصُ سهلٌ، شيّق، يسهل التعامل معه.

كانت فقرتهم في منتصف السَّهرة، التي سمعوا خلالها تعليقات تنمُّ عن حسدٍ أو غيرة بعض الكشّافة، لكنهم لم يأبهوا بأيَّة مشاكسة، وادخروا الرَّدَّ حتى قدّمهم مدير الحفل.

انفرجت ستارة المسرح البسيط، فعمَّ الصّمتُ حال ظهور مائدة عليها كثير من أصناف الطعام. وعلى رأسها ملك بتاج حوله رجال يرتدون ملابس تعود إلى القرون الوسطى في أوروبا. وفوقهم عبارة كتبها الكشّاف مزهر بخطٍّ جميل: (تكريم كريستوفر كولومبوس لاكتشافه قارة أمريكا). قال الملك الذي لعب دوره عريف الطليعة:

- أرحِّب بالبحَّار العظيم، ومكتشف قارة أمريكيا كريستوفر كولومبوس. فهذه المائدة تكريماً لجهده الكبير ولذكائه.

على المائدة سلةُ قشٍّ، فيها بيضٌ مسلوق. ويبدو أن الملك وكريستوفر اتفقا على وجودها، فالملك عرف، أنَّ كثيراً من حاشيته، ورجالَ قصره، وكبار البلد يقلِّلون من شأن هذا البحَّار، ويقولون بأن اكتشاف أمريكيا أسهلُ من سلق بيضة.

وبينما انشغل الملك بالحديث مع كريستوفر الذي يلعب دوره ورد، أخذ الرجال يتهامسون فيما بينهم:

- هل يستحق كريستوفر كل هذا التكريم الكبير؟!

- لم يفعل شيئاً ذا قيمة، حتى يكرِّمه الملك.

- الصُّدفةُ وحدُها قادت سفينته إلى هناك.

- والله لو أنَّ سفينةً أبحرت وحدها بلا ربَّان أو قبطان لاكتشفت أمريكا!

- لا أعرفُ كيف يكرِّمه الملكُ؟!

وهنا يشتاط غضبُ كريستوفر عندما سمع بعضَ همسهم:

- ليسمح جلالة الملك، أن أحيِّي الرجالَ الذين يستسهلون اكتشاف قارة بطريقتي الخاصة.

- لك هذا أيّها البحَّارُ الفذُّ. فمدَّ كريستوفر يده إلى السَّلّة وتناول بيضة:

- من منكم يقدر أن يوقف على رأسه هذه البيضة من حرفها (أي على رأسها المُدبب)؟ هذا أسهل من اكتشاف قارة؟! فيضحك الرجال، وكأنهم استسخفوا طلبه. فيتدخل الملك بلهجة آمرة:

- توقفوا عن الضحك! وأروني كيف توقفون البيضة على رؤوسكم العامرة بالغباء؟ هيّا. فينهضُ الرجلُ الأوُل، ويحاول ايقافها، لكنّه ما إن تركها، حتى سقطت متكسرة عند قدمه؛ فانفجرت ضحكات الحضور والجمهور.

حاول الرجل الثاني، فكان مصير البيضة المسكينة كسابقتها. والثالث كذلك، ثم الرابع، حتى جاء الرجل الأخير فسقطت منه قبل أن يضعها على يافوخ رأسه، فيداه ترتجفان من الإحراج أو الخوف.

وبعد فشل الممثلون بتثبيت البيضة على رؤوسهم طلب الملك من الجمهور:

– من يستطيعُ منكم أن يوقفها على رأسه؟ فرفع بضعة كشافة أصابعهم، لكن الملك اختار الكشّاف الذي كاد يتسبّب بمشاجرة مع رفيقه.

أخذ البيضة بثقة وحاول أن يوقفها، فوقفت لثانية؛ ثم تدحرجت متهاوية؛ لتثير موجة ضحك عارمة. ولهذا تراجع الذين كانوا يرفعون أياديهم عن المحاولة. فيقف الملك غاضباً:

– سمعتُ أنَّ كثيرين في المدينة يقلّلون من شأن اكتشاف قارة بحجم أمريكا! ويبدو أن هذه حالُ الناس، في كلِّ زمان ومكان! فيخيّمُ السكون على الرجال، وعلى جمهور الكشافة أيضاً. فيتابعُ الملكُ ناظراً إلى كرستوفر باسماً:

– الآن، وبعد فشلكم جميعاً. قل لنّا يا كريستوفر كيف اكتشفتَ أمريكيا؟ أقصدُ كيف توقف هذه البيضة على رأسك؟!

وقف البحّار وتناول بيضة. وبضربة خفيفةٍ نقر رأسها على الطاولة، فأحدث فيها فِجوةً صغيرة، مما جعلها تقفُ بكلِّ سهولة على رأسه.

دوّت صفقة كشفية قوية في أرجاء المخيم. وبعدها رفع الملك يده مشيراً بالسكوت:

– عليكم أن تحترموا نجاحَ الآخرين، وذكاءهم، وأفكارهم، فهي ليست سهلةً كما تتوقعون؟ فخيَّم الخجلُ على وجوه البعض.

– أرايتم ما أسهل اكتشاف أمريكيا؟ إنَّه أسهلُ من إيقاف بيضة على الرأس! وهنا يتقدَّمُ قائدُ التّجمّع، ويقفُ جوارَ الملك:

– أرايتم أيّها الكشّافة، ما أسهل حفظ حبة البقلاوة، وحمايتها من النمل؟ إنّه أسهل من إيقاف بيضة على الرأس!

فدوّى تصفيقٌ كشفيٌّ ثانٍ تردّد صداهُ في أرجاء المعسكر.

عيونُ الأصابع

انتظرت العائلةُ عودةَ ورد من المخيَّم، على أحرَّ من الجمر. فالأب حجز تذاكر السيرك المقام في خيمة ذات شكل غريب، في شارع وصفي التل، أو ما يعرفه العمّانيون بشارع (الجاردنز)، لأنه كان زاخراً بالحدائق.

وما إن وصل البيت، حتى بدّل ثيابه، مؤجّلاً حديثه عن تفاصيل المخيم، كعادته بعد كل رحلة، إلى ما بعد السيرك.

في الطريق سيطرت على أحاديثهم ذكرياتُ السيرك الذي شاهدوه قبل سنة تقريباً في المكان ذاته. فنايا لم يعجبها استخدام السكاكين ورميها، حتى ولو كانوا ماهرين في إصابة الهدف.

- معك حق يا ابنتي. يومها اقترحتُ على مدير السيرك، أن تلغى تلك الفقرةُ؛ لأنها لا تلائم الطفولة.

- ويعجبني الرجل الرشيق البهلوان، الذي تقافز فوق الحبال المشدودة. أتمنَّى أن أراه اليوم. فتضيف الأم:

- كان مُخيفاً، جعل قلبي يتوقّف أكثرَ من مرة!

بدأت العروض قبل وصول العائلة. لكنهم لم يحتاجوا لمن يرشدهم إلى مقاعدهم، فالإنارة ساطعة. فتمتمت نايا:

- السيرك ليس مُعتماً كالسينما!

فقرة الحيوانات المفترسة شدّت انتباه الجميع، فمروِّضُ

الحيوانات يحملُ سوطاً، يسوطُ به الهواء محدثاً صوتاً يحركُ الأسد، بكل سهولة كيف يشاء، ويجعله يقفُ على قدميه الخلفيتين كدبٍّ أبله، ثم بضربة سوطٍ أخرى؛ يجعله يقعي مثل قطٍّ خجول.

– مسكينٌ أيّها الأسدُ. كيف وصلتَ إلى هذا الحدِّ من الذلِّ والمهانة؟! لكن الأمَّ طلبت من عمر أن يصمت.

في فقرة الألعاب الخفيفة ظهر السّاحرُ، وأمامه صندوقٌ شفَّافٌ مليء بالكرات الزجاجيّة الملوّنة: الحمراء، والصفراء، والزرقاء، والخضراء. وافتخر متبجّحاً بأنّه يستطيعُ انتقاء الكرات الزرقاء، من بين كلّ الكرات، وهو مغمضُ العينين.

– أصابعي ترى! وطلب من أحد الحاضرين، أن يتقدَّم لربط قماشةً سوداء حول عينيه.

على أنغام موسيقى صاخبة، مدَّ السّاحر يده وخلط الكراتِ أكثر من مرة، وأخذ يلتقطُ الكرات الزرقاء: واحدةً واحدةً، بدقةٍ متناهية، وكأنه يرى بأصابعه.

صفَّق الجمهورُ بحماسة اعجاباً بالسّاحر، لكن الخدعة لم تنطلِ على عمر الذي وقف قائلاً:

– أريدك أن تخرجَ الكراتِ الحمراء! إن كانت أصابعُكَ ترى! لكنَّ السّاحر اعتذر متحجِّجاً، بأن عليه تقديم فقرةً أخرى، وأنَّ الوقت يضيق.

في البيت، لم تكن السهرة مفتوحةً لورد، ليقصَّ تفاصيل مخيمهِ على أهله، بل متاحةً لعمر أكثر. فبعد فقرة الكرات في السيرك ظل متسائلاً في نفسه: كيف استطاع السّاحرُ، أن يخرِجَ الكراتِ الزرقاء! وهل أصابعه ترى حقاً؟!

بعد ساعة، أحضر إلى غرفة المعيشة صندوقاً بكرات زجاجية (دواحل) أو (جلول)، كالتي يلعب بها الأطفال.

- أيّتها العائلةُ الكريمة. إنَّ أصابعي ترى! وأستطيعُ أن أخرجَ الدواحلَ الحمراء، من بين الكرات المتشابهة.

- تريد أن تقلِّد السّاحر؟!

- بل كشفتُ الحيلةَ التي ساقها على النّاس! فقامت نايا، وشدّت منديلاً أسودَ حول عينيه. ثمَّ أدت حركات ساخرة أمامهُ؛ كي تتأكّد أنّه لا يرى.

أدخل يده في الصندوق، وخلط الدواحلَ أكثر من مرة، ثم أخذ يتلمَّسها بأصابعه، مخرجاً الكرات الحمراء: كرةً، كرةً.

- يا لك من ساحر عظيم!

- كيف جعلتَ أصابعك ترى؟! تساءلت نايا بدهشة.

- بل قولي. كيف جعلتُ أصابعي تحسُّ؟!

- كيف؟ فتدخّل ورد ضاحكاً وقد عرف السرَّ.

- رأيت عمر يضعُ الكرات الحمراء في الثلاجة، وبعد أن بردت خلطها مع باقي الكرات. وحين طلبتم منه أن يخرجها، ما كان عليه إلا أن يتحسَّس برودتها. هذا كلُّ ما في الأمر!

- نعم هذا ما فعلته، وهذا ما فعله الساحر، ولو طلبتم مني الكرات الزرقاء؛ لتحجّجتُ بأني نعسان تعبان.

- أنتَ شرير خطير! قالتها الأم، وهي تقبّله بشدَّة.

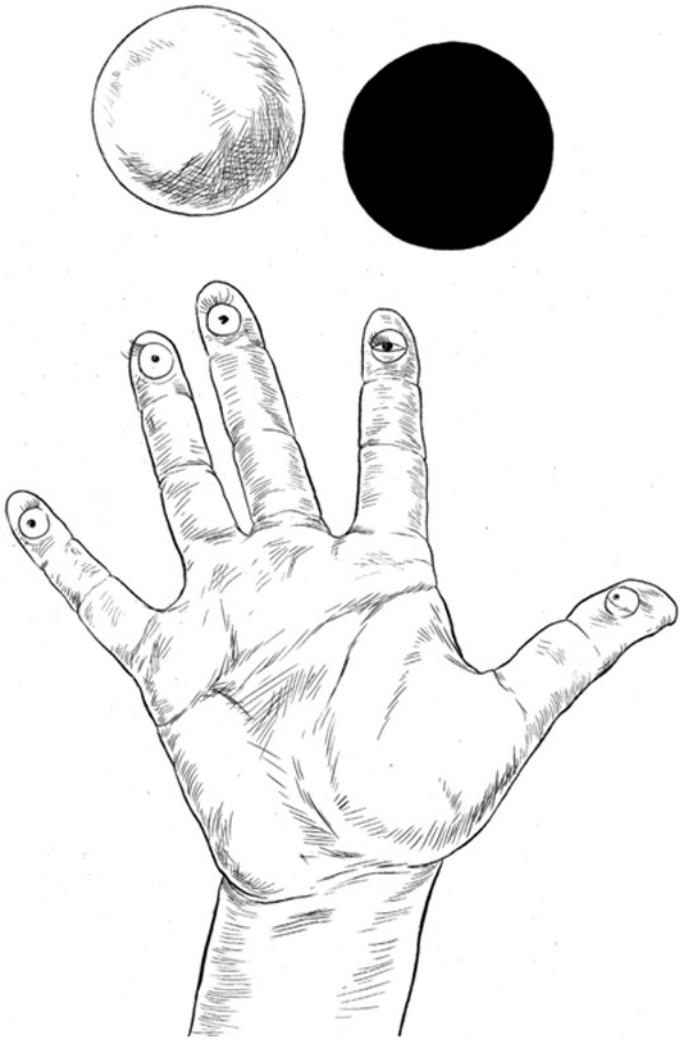

كُرةٌ زرقاء ونَقلةٌ كبيرة

دار ورد بمركبته الفضائية حول القمر بفرح، قبل أن يقلّل من سرعتها ليتمكن من رؤية الكواكب، التي لم يكن يراها بوضوح من سطح الأرض.

كوكب الزُهرة، الذي يُعرفُ أنّهُ توأمُ الأرض، كان قريباً جداً، ويخيّلُ إليه أنّه بمتناول يده كبطيخة، وتمنّى لو يُتاحُ له أن يهبط فوقه لبعض الوقت.

المريخ حبّة كرزٍ ناضجة؛ لهذا يسمُّونه الكوكب الأحمر. وهو رمزُ الحرب عند اليونان والرومان. والمدهش أكثر أن الشّمس كانت تشرقُ وتغرب، كلما أكمل دورةً حولَ القمر.

خطَّط في البداية، أن يهبط فوق الوجه المخفي من القمر. فنحن لا نرى منه، إلا جانباً واحداً، بسبب حركته المتزامنة مع حركة الأرض. أي نحن ندورُ، والقمر يدور، وهكذا يبقى أمامنا جانب واحد منه.

وجد ورد أن الجانب المخفيَّ ليس مظلماً، بل مُضاء أيضاً، كالوجه الذي نراه. رغم أن القمر لا يعكس ضوء الشمس إلاّ بمقدار ما تعكسه قطعة الفحم!

- ومع هذا يبدو منيراً!

في اللّحظات الأخيرة قرّر أن يهبط على الجانب المقابل

للأرض. كـان يريدُ أن يـرى الأرض كُـرةً زرقـاء تسـبحُ في الفـضـاء الواسع، ويتـأكـد: هل يتـغيّـر شكلُهـا كمـا يتـغيّـر شكلُ القـمـر طيلة الشـهـر؟! أي هل هناك هلالٌ أرضـي؟! كـمـا هـي الحـال مـع الهـلال القمري؟! وهل هناك بدرٌ أرضي؟!

- سبحان الله!

تذكّر حين حطَّت قدمه على تراب القمر مقولةَ رائد الفضاء (نيل أرمسترونغ) الذي توفّي العام الماضي 2012م، وهو يخطو أولى خطوةٍ على سطحه قبل 44 سنة:

- إنّها خطوةٌ بسيطةٌ لإنسان، لكنّها نقلةٌ كبيرةٌ للإنسانية!

(أم الدامي)

قفز ورد فوجد الأمر ممتعاً، ولا يتطلب مجهوداً كبيراً. فجاذبية القمر ضعيفة، ولا تتجاوز سُدس قوة الجاذبية على الأرض، ثم هرول ككنغر، وكان يرتفع أكثر ليشعر بلذة فقدان الوزن.

بعد التعب رسم بيتاً بشرفة غربية كبيت جده. ثم كتب اسمه على الرّمال التي تذكّره بصحراء الجيزة. كان بوده لو يخلع حذاءه الثقيل ويمشي مستعيداً اللذة التي جناها مع أبيه وصديقيه. لكنَّ نزع بدلة الفضاء لا يعني إلا الموت.

- كيف أخلعها وهي حياتي؟!

هالته الأرضُ من جديد وأدهشته. فأخذ يردِّدُ في نفسه: ما أجمل كوكبنا! لو كنتُ من سكان الفضاء، فلن يعجبني جرمٌ في السماء، إلا الأرض. ما أجمل هذه الزرقاء! بعدها دقّق النظر، علّهُ يميّزُ قارةَ آسيا فلم يستطع.

جال بصره في كلِّ الجهات، فأعجبته الجبالُ، رغم أنّها ليست شاهقةً، لكنّها تشبه جبال رمٍّ. وحين رأى جبلاً كبيراً تذكّر ما قرأه عن (أم الدامي)، أعلى جبل في وادي رم، على الحدود الأردنية السعودية الذي يرتفع 1854م فوق سطح البحر. فودَّ لو يسمّيه جبل رم. لكنه يعرف أن كلَّ جبل من هذه الجبال القمرية يحملُ اسماً لا يستطيع تغييره.

في لحظة فكَّر أن يبحث عن شجرة يستظلُ بها، ثم تبسم. فكيف ينمو الشجرُ على هذا القمر الخالي من عناصر الحياة؟! ولهذا أرسل بصره إلى الأرض من جديد. وحين أراد أن يتعجَّب من جمالها الأخّاذ، شعر بثقل يجثمُ على صدره. وأحسَّ بما يشبهُ الدَّوار الذي أصابه في القاربً السريع في العقبة.

ضاق تنفسه أكثر، ولهذا كان عليه أن يسرع إلى مركبته، التي تبعد عنه ما لا يقلُّ عن 100 متر. حاول أن يقفز ليصلها أسرع؛ فكانت قفزته قصيرة كقفزة فيل. استجمع نفسه علّه يصل قافزاً إلى إسطوانة الأكسجين الاحتياطية، لكن قواه خارت في الحال فهوى يهذي:

- إني أموت، أموت أموت.

ألقى نظرةً أخيرةً على أمه الأرض، فوجدها تمدُّ يدها إليه بحنو؛ وتمنحه شحنة جعلته يقفز مطلقاً صرخة كانت كفيلةً بإيقاظ أهل البيت.

فتح عينيه، فوجد أهلهُ حوله. أمّه التي فزعت، كانت تلهجُ بآيات من القرآن:

- اسم الله عليك. هل رأيت كابوساً؟!

- كنتُ على القمر يا أمي. ونقصُ الأكسجين أيقظني!

فضحكوا، وهم يعودون إلى أسرِتهم.

- هذا الحلم بسبب توقك لرحلة وادي القمر في الغد. نمْ يا أخي نمْ. وخُذ معكَ اسطوانة أكسجين احتياطية، كي لا توقظ عمّان وضواحيها!

تينةُ الصخر

رتَّب ورد كلَّ شيء بشأن رحلة البتراء والعقبة ورم. اختار موعدها بدقة متناهية. فبرمج الأب أعماله، بعد أن زار مدرسة الأولاد وطلب إجازة لهم، واعداً بتعويض ما يفوتهم من دروس. والأم التي اضطرت أن تأخذ أجازتها السنوية كانت تردِّد:

- أنتم عائلة مجنونة! أهناك من يقوم برحلة في بداية الأسبوع؟!

انطلقوا صبيحة الأحد21 نيسان 2013 ميلادي، الموافق 11 جماد الثاني 1434هجري، كي يقتنصوا القمر بعد يومين وهو يكتملُ بدراً فوق الرمال.

- كيف سيكون قمرُ رم: كبيراً كقمر عمّان؟ أم صغيراً كقمر عجلون؟!

بعد تناول الفطور في مطعم أبو جبارة، في شارع المدينة المنورة اتجهوا جنوباً عبر شارع المطار، الذي لم يعجب نايا التلكؤ في تجهيزه.

- ألم ينتهوا بعد؟!

في بلدة الجيزة، طلب عمر أن يجنحوا شطرَ الصحراء، علّهم يجدون الكمأةَ، لكنَّه تذكر بأنها لا تنبتُ، إلا بعد يوم ماطر مرعد.

وسط البلدة أخذوا صوراً لبِركَة الجيزة الرومانية، التي كانت

تخزِّن ماء الأمطار وما زالت. كان الجوُّ صافياً، والحرارة معتدلة، والطريقُ غير مكتظة. فهمست نايا مقبّلةً أباها.

- ستكون رحلةً جميلةً.

في القطرانة تمتعوا باستراحة قهوة، فذكر الأب أن هذه البلدة كانت محطة مهمةً لقطار الخطّ الحجازي، الذي أنشأهُ العثمانيون الأتراك، قبل 105 سنوات، لنقل حجّاج بيت الله الحرام من دمشق إلى المدينة المنورة. لكنَّ العمل توقف بها بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى 1914م.

عندما دخلوا مدينة الشوبك؛ تذكّروا عجلون في الحال. فجبالُها تشبهُ جبالَها. لولا أنَّ شجرَ عجلون أكثفُ وأطولُ، وأكثرُ خضرةً بسبب ارتفاع معدل هطول الأمطار. كانت مزارع التفاح تملأُ أنظارهم على جنبات الطريق. ورغم عبورهم المدينة بسرعة، كي يدركوا موعدهم في وادي موسى. إلا أن السيّارة توقفت وترجّل الأب قبالة قلعة تربضُ على تلة عالية.

- تشبه قلعة عجلون أيضاً!

- لأنها تعود إلى الفترة الزمنية ذاتها. ردَّ الأب، ثم أضاف بأن الأمير الصّليبي (بلدوين الأوّل)، ملك القدس آنذاك، بناها وأطلق عليها اسم (مونتريال) أي (الجبل الملوكي)، لتكون رأس حربة في وجه المسلمين، من جهة الحجاز ومصر، إلا أن صلاح الدين الأيوبي حاصرها وحرَّرها عام 1189 م. فأكمل ورد بسرعة:

- أي بعد معركة حطين بسنتين والتي تحررت بعدها القدس.

على مشارف البتراء توقفوا عند عيون النبي موسى، نبعة الماء الفوّارة، التي تروي بساتين الرمان والزيتون في بلدة وادي موسى،

وكان يصلُ ماؤها إلى البتراء، عبر أنابيب سرية تحت الأرض مدَّها العرب الأنباط. تأملوا الجبال الصخرية المقببة من هذا الارتفاع الشاهق. لكنَّ هاتفاً من عائلة صديقهم تعجلهم للغداء.

أخذوا قيلولة في غرفهم في الفندق المطل على جبال البتراء الوردية. كي يستعدّوا للسهر ببرنامج (البتراء ليلاً)، الذي يتيحُ استكشاف المدينة بضوء الشموع، وهمس الهدوء والنغم.

كانت العائلة زارت المكان قبل عامين، وقضت يوماً كاملاً في اكتشاف معالم المدينة، التي نُحتت بمعول الأنباط، أصحاب الباع الطويل في التجارة والفن. فتذكّر ورد كلام أبيه:

- عليك أن تتحوّل إلى عين صقرية! عين مُحدِّقة ثاقبة تلتهمُ كلَّ المشاهد الخلّابة المباغتة عبر السيق الصخري. وحين تلتقي وجهاً لوجه بالخزنة الورديّة؛ ستعرفُ معنى الدّهشة، وستعلم أنَّ عليك أن تمسكَ بقفص صدرك، فلا أسهل من هروب القلوب!

وتذكّر عمر ملاحظة أمه، بأنَّ عليه أن يقرأ إرادةَ الحياةِ، ليس في تطويع قسوة الصّخر فحسب، بل في شجر التّين العنيد، الذي ينمو بقوة في صخور السيق الشاهقة. وتذكّر أن أباه سألهم حينها:

- كيف وصل التين إلى هناك؟!

- العصافير التي تتغذى على التين تترك فضلاتها المليئة ببذوره هناك! إنها طريقة ذكية في الزراعة!

عند الثّامنة مساء نزلوا إلى البتراء رفقة مجموعة سياحية كبيرة ضمّت عرباً وأجانب. كانت الشموع تسطِّرُ الطريق، فتبدو كشارع مؤطر بعاكسات. والهدوء كان سيّد الموقف، ولا شيء يخدش صداه.

– الصمت يجعلكَ تقرأُ البتراء بلغة أخرى! البتراء موسيقى مُجمّدة! عليك أن تنصت إليها بخشوع وتتشربها. قال الأب، ثم همس لورد:

– كُن يقظاً، كحارس ليلي لحالة الدهشة، التي تقابلك بها أشياءُ بترا، لتفتح لك مسارب الرؤية على رحابتها، ولتقرأ بلغة صامتة، معنى الحضارة التي أقامها أجدادُنا، في هذا الصخر العنيد!

في السّيق كانت أشجار التين تتراءى في ضوء القمر. فقال في نفسه إنها تشبهُ الأنباط، حينما نحتوا حضارةً يانعة في صحراء مُقفرة.

الخزنة صنعت بهجةَ نفوسهم. فهي مضاءةٌ بطريقة تشعرك، بأنها أغنية عابرة للتواريخ والحضارات. وحين طلب الدليل السياحي، أن يقعدوا أرضاً، وينصتوا إلى صمت المكان، ابتهج ورد لملمس الرمل، الذي ذكره برحلة القمر.

الشُبَّابةُ أوركسترا السّهرة. فالعازفُ الذي وقف قبالة باب الخزنة، بدا ضخماً في ضوء الشموع. وألحانهُ الممتزجة بعبق الماضي حملتهم إلى عوالم من الدهشة الحالمة. فرأى وردٌ ملكَ البتراء القوي الحارث الرابع (9ق.م– 30م) بثوبه الأزرق الطويل، وحزامه العريض، وتاجه الذهبي، يستقبلُ قوافل البخور والتوابل من الهند والصين.

ورأى زوجته الملكة (شقيلة) تسبحُ في بركة تفوحُ بروائح الصندل، وعود الندِّ، والزعفران، والبخور. وتنشّقَ غيمةَ عطر تجلِّلُ المكان، وتغطيه كعباءة نور.

وشاهد الجنود متأهبين بسيوفهم الطويلة. وتراءت له فرقة نزقة من جيش الرومان، تبحث دون جدوى، عن مدينة وردية، يخفيها سيقٌ طويل!

جمرةُ الماء

اتجهوا إلى العقبة صباحاً، عبر طريق الملوك، وهي طريق قديمة أعاد الإمبراطور الروماني (تراجان) تمهيدها في القرن الثاني الميلادي.

قبلها مرّوا بقرية طيبة زمان الأثرية، فسحرتهم بيوتها الطينية البسيطة. تناولوا إفطارهم في مطعم يوفر أكلات شعبية وخبزاً على الصَّاج (شراك). وشدّتهم الجبالُ الصخرية التي ملأت الآفاق. وتمنّى عمر لو تتولى العصافير زراعتها بأشجار التين!

وقفت السيّارة لقراءة جبال الشراة التي لاحت بشموخها القريب. فاتفقوا أن يخصِّصوا رحلة لاستكشافها في قابل السنوات. قبل الظهيرة دخلوا ثغر الأردن الباسم، مدينة نظيفة جميلة تزين أشجار النخيل الباسقة أرصفتها وساحاتها: العقبة ترحب بكم.

قبل أن يتسلموا فندقهم توجّهوا إلى محطّة الأحياء البحرية. وهي متحف شامل يضمُّ أشكالاً من الحياة في البحر الأحمر أو بحر (القلزم)، كما كان يسميه العرب، فهالهم التّنوع الذي يزخرُ به. أخذوا صوراً مع كائنات لطيفة. عمر أدهشته سمكة الحجر، المسمّاة سمكة أبو اللبن، وهي تتشبه بالحجارة لتمويه الأعداء؛ والمحافظة على حياتها، فشاكسها بمزيد من الصّور البارقة. فقالت نايا:

- ما أقواها!

بعد استراحة الغداء في الفندق البحري. جالوا في القارب الزجاجي الذي تستطيع من خلاله مشاهدة ما في الخليج من أحياء وشعب مرجانية وسفن غارقة ونفايات متنوعة تثير الأسف. وبعد أن أوغلوا في عرض البحر، اقترح عمر أن يمضوا قُدماً باتجاه شرم الشيخ، أو خليج مدينة طابا المصرية، أو حتى مدينة ذهب. فوعده أبوه أن يحقق مطلبه في القريب.

رتَّب ورد أن تكون السّهرة في ساحة القلعة وسط العقبة. فحرص أن يتواجدَ أهلُه في هذا المكان مع الغروب تحديداً. فالشمس تغوص في صفحة البحر، لينتشر دمها شفقاً بديعاً يلوّن السماء!

- أكادُ أسمعُ طرطشةَ الماء وغليانه حين تمسُّهُ جمرةُ الشّمس!

- يا لخيالكَ الجامح يا أخي!

هضيب الريح

في يوم الرحلة الثالث عادوا شمالاً، باتجاه وادي رم، الذي يبعد عن العقبة 70 كيلومتراً. وحينما امتشقوا الصحراء، طلب عمر من أبيه، أن يمنحهم فرصة المشي على الرمال. فأعطاهم نصفَ ساعة منبّهاً على ضرورة أخذ الحِيطة، فالرمل سكنٌ لبعض الكائنات.

- أنا لا أخاف الأفاعي. إنها لا تؤذي إلاّ من يؤذيها! قالت نايا بثقة:

في طريقهم إلى وادي القمر مرُّوا بمزارع خضراء يانعة في (الدِّيسة)، فتعجّب الأولاد كيف لهذا الخضار أن ينمو في أرض قاحلة؟! وسأل عمر إن كان ثمةَ نهرٌ يسقيها؟

- هذه الصحراء تسبح فوق بحر عذب!

- لم أفهم؟

- إنّها عامرة بالمياه الجوفيّة!

وحين انعطفت السيارة يميناً، شاهدوا المضخّات الكبيرة، فقال الأب:

- هذه تضخُّ ماءها إلى عمان وتزودنا ب 100مليون متر مكعب سنوياً.

- الحمد لله! أنقذتنا الدِّيسة من العطش.

قبل وصولهم المخيم ذكّرهم ورد، بأنَّ اليومَ هو الثالثُ عشر من جمادى الثاني، أي أنّ القمر سيكون بدراً الليلة، وسيشرقُ بعد غروب الشمس بربع ساعة تقريباً.

- علينا ألا نضيّع الفرصة! ثم تساءل في نفسه: هل سيكون قمر رم مختلفاً؟! أم سيكون صغيراً كقمر عجلون؟! أو كبيراً كقمر عمان؟!

في المخيم رتّبوا أشياءهم واتجهوا إلى المطعم؛ لتناول الغداء. كان (زَرباً) شهيّاً، كما وعد الأب، أي لحماً مشويّاً على جمرٍ في جوف الأرض.

اقتربت العائلة من الطاهي الذي طلب منهم أن يجهِّزوا هواتفهم؛ لأخذ صورٍ لهذه الأكلة الطيبة. أزاح الرمل فظهرت صفيحة معدنية دائرية، رفعها بلطف؛ كي لا يتسرّب الرمل إلى الداخل، ثم سحب سلّة حديديةً، تربّع فيه خاروف مشوي بلا رأس، محاط بالبطاطا والخضار. الرائحة لا تقاوم.

طاب الجو بعد العصر، فنيسان أجملُ الشهور لرمٍّ ووادِيها.

- وأجمل الشهور للقمر وعشّاقه! قالها ورد.

- قمر نيسان يضرب المثل بجماله. حتى إنهم كانوا يشبِّهون به البنت الجميلة.

أخذتهم سيّارة دفع رباعي متهالكة من نوع (لاند روفر) في جولة. الأب طلب من الدليل السياحي أن يأخذهم إلى منطقة خالية من الجبال.

بعد فترة قصيرة تهيَّأت الشمسُ للمغيب، فتوقفوا في أرض مستوية، لوداع القرص الأحمر يغوص بهدوء في بحر آخر.

- هل تسمع طرطشةً يا عمر؟! قالها الأب.

- أحسّ الشّمسَ صرصاراً يدفنُ نفسه في الرمل.

ورد لم يترك شيئاً للصدفة، فهو الذي طلب من أبيه، أن يختار هذا المكان البعيد عن الجبال، كي يشهدوا غروب الشّمس، وشروق القمر.

افترشت العائلة بساط الرمال الدافئة، وما إن أرخى الليل أول ظلمته الباهتة، حتى انشدت أبصارهم مبهورةً نحو الشرق. فثمة نورٌ شعَّ من الرمل وكأنه نباتٌ ينموُ.

- سبحان الله.

- كم جميل هذا القمر! لك الحقُّ أن تعشقهُ. قالت نايا. لكنّ ورداً حدّق في السماء وهمس:

- قمر مختلفٌ عن قمري عجلون وعمان؟!

- ماذا تقول؟ كيف؟!

- إنه محايد! لا صغير، ولا كبير!

فرح الأب في نفسه، فقد أدرك، أنَّ ورداً بلغ في هذه اللّحظة، ما جاء لأجله، وقدّر أنّه لم يشأ أن يوضّح كلامه ويفسّره، ولهذا ابتعد يتأمّل الرغيف الطالع من فرن الرمل.

بعد عشاء خفيف، أقيمت حفلةُ سمرٍ في ساحة المخيم المبلطة، ففرحت العائلة، وشاركت في دبكة (الجوفية) الشعبية التي يحبُّها ويتقنُها عمر، واستجابت نايا لطلب أمها، وعزفت على الأورغ باقة من أغان لفيروز وماجدة الرومي، نالت إعجاب السّاهرين.

انسحب ورد بهدوء من الحفلة لمقابلة صديقه، وما إن مشى بضع مئات من الأمتار، حتى وجد نفسه في مكان كان فيه قبل

ثلاث ليالٍ. إنّه على القمر. وهذه هي الجبال نفسها. فكم هو دقيق الملاحظة من سمّاه وادي القمر!

كان الرمل بارداً، يُكهربُ القدمين بشحنةٍ لذيذة، فتمدّد رافعاً رأسه. البدر يتكبّدُ السماء ببهاءٍ. مدَّ يده برفق، وسلّم عليها بسرور. كانت يده باردة، لكنه لم يتركها، إلا على صوت أمه، تطلب منه أن يأتي للنوم:

- تأخر الوقت!

بعد الفجر. لم تضيّعُ العائلةُ فرصةَ مشاهدة شروق الشمس. كانت بهيّةً، وهي تخرجُ من سطح الأرض المنبسطة، وترتفع فوق الجبال، والقمر كان خافتاً، كورقٍ شفّافٍ في صفحة الغروب.

بعد إفطار ثقيل جالت العائلة في الصحراء الواسعة وطالعت نقوشاً عربية على الصخور. وسَأل الأبُّ عن جبل (أم الدامي)؛ فأخبره الدليلُ السياحيُّ؛ أنّه بعيد جداً، ويحتاج لأكثر من ساعتين لوصوله. ثم سأله عن قرية (هضيب الريح). فلم يعرف أين هي؟! بل لم يسمع بها! فتعجّب الأب.

- هضيب الريح أقدمُ منطقةٍ في العالم زُرعت بأشجار الزيتون، يعودُ تاريخُها إلى العصر النُّحاسي 5400 ق. م؛ فصفّر عمر. رغم أن أمّه تنهاه عن هذه العادة.

- أي منذ سبعة آلاف وخمسمئة سنة!

- ولكننا لا نرى زيتوناً! ولا شجراً، يا أبي!

- تغيّر المناخ، وتبدّلت أحواله. فبلادنا كانت جناناً وغابات خضراء.

يا حوت لا تأكل قمرنا

في العاشر من الشهر الخامس (أيّار)، تاقَ ورد إلى مشاهدة كسوف الشّمس. ولأنّ الأردن لن يكون في نطاق هذه الظاهرة الفلكية، هذه المرّة كما بيّنت الأخبار. لهذا قلّبَ الفضائيات؛ ليعثر على واحدة من أمريكيا اللاتينية، تبُثُّ الحدث بكامله، كان يريد أن يتمتّعَ بقوة قمره الحبيب، وانتصاره على الشمس. عمر:

- أنا لا أميّزُ بين الكسوفِ والخسوف! فأجاب الأبُّ: بأن الأول يخصُّ الشّمس، والخسوف للقمر. وكيلا تخلطَ بينهما؛ تذكّر أنَّ الإخوة المصريين يقولون، عن الفتاة الخجولة بأنها: (مكسوفة)، أي تحتجب أو تختبئ. وكذلك تفعلُ الشّمسُ، هذه أمّنا الحلوة. فضحكوا.

- والكسوف ظاهرة تحدثُ بسبب سير الضوء بخطٍّ مستقيم، ولأنَّ القمر يدورُ كسائر الأجرام السماويّة، فيحدثُ أن يقع بين الشّمس والأرض، فيسقط ظله على الثانية، حاجباً قرص الشمس، أو جزءاً منها.

- قرأتُ يا أبي، أنّه حدث في صباح يوم من عام 1230م كسوفٌ كلي للشمس في أوروبا، فعاد العمّال إلى منازلهم؛ لظنهم أن اللّيل خيّم باكراً. فتمنّى عمر، لو أن كسوفاً يحدثُ صباح بعد غد؛ كي يعود من المدرسة باكراً، فيبدو أنه لم يدرس لامتحان الرياضيات كما ينبغي.

تابع ورد بحثه عن قناة فضائية تبثُّ الحدث. فقد كان يريد أن يتباهى بأن قمره الصغير يستطيع أن يحجب الشمس، التي تفوقه بالحجم بمقدار 400 مرة.

- أريد أن أنتقم لقمري!

- يبدو أنك لم تنسَ خسوف الشهر الماضي؟!

فتذكر ورد حزنه بعد عودتهم من وادي رم بليلتين. كانوا في عجلون يوم الخميس 25 نيسان 2013 ليلة الجمعة، حينما خُسفَ قمرُهُ. كان لا يريد متابعة المشهد الذي يؤلمه، لكنّ عائلته أصرّت عليه.

- على الأقل شجِّعْه كي يخرجَ من الظل منتصراً!

ليلتها سهروا على الشرفة، كان البدر بديعاً، وهو يجتازُ ميدان السّماء بزهو وكبرياء، وفكّر كيف أن الأرض الطيّبة، هذه الكرة الزرقاء الجميلة تجرؤ على إلقاء ظلِّها، لتخسفَ وتخفي ابنها الوحيد القمر.

تحدّث الأب أن بعضَ الشعوب البدائية، كانت تفسِّرُ الظواهر الكونية تفسيرات ساذجة. فقد كانوا يعتقدون مثلاً، أن الأرض يحملها ثورٌ كبيرٌ على قرنه، ويمخرُ بها عباب الفضاء، لاهثاً بسرعة جنونية، وحينما كان يريد أن يريّح قرنه، كان يقذفُ بالأرض المسكينة عالياً، لتستقر من جديد على قرنه الآخر، فيحدث زلزال نتيجة هذا الانتقال الخطر. فضحكوا.

- ما أسخفهم! وما أغباهم!

- لا تقولي هذا يا نايا. فالإنسان البدائي، لم يكن يعلم أن تكسّر بعض طبقات الأرض الصخرية، هو الذي يسبِّبُ الزلزال؛

ولهذا قادهم خيالهم إلى التفكير بهذا الثّور.

– ولكن ماذا لو أن أرضنا لم تستقر مجدّداً على قرنه؟!

– وكذلك فإن شعوباً كثيرة، كانت تخافُ حين يُخسفُ القمرُ، ومنها الشعوب العربية، ولهذا كانوا يدقون الطبول، ويطرقون الأواني والصواني، لأنهم يعتقدون أنّ حوتاً كبيراً ابتلع قمرهم. ولهذا يحاولون أن يرعبوه بقرقعة المعادن وضجيجها، كي يتركه لحال سبيله.

– وهؤلاء أسخفُ من أصحاب الثور!

– عذرهم أنهم لم يكونوا يعرفون، أنه حينما يكون الثلاثة على خطٍّ واحدٍ: الشمس والأرض والقمر. فإن ظلَّ الأرض يسقطُ على القمر؛ فيخسفه أي يدخله في الظلام.

حزن ورد حينما بدأ قمره يدخل في الظّل بهدوء وخوف، ولهذا همس برجاء:

– أيها الحوت الذي اعتقد أنّ السماء بحر؛ فطار ليأكل قمرها الوحيد.

أيها الحوت الحبيب،

يا من يريد أن يبتلع شمعة ليلنا.

القمر لا يؤكل!

القمر قنديل للساهرين.

الأب الذي أراد صرف نظر ورد عن قمره المخسوف، قال رافعاً إصبعه تجاه السماء:

– رُبَّ ضارةٍ نافعة. فحينما يكون البدر متسيّداً السماء، فإننا لا نلتفتُ إلى النجوم، فنور القمر يغطي عليها.

- (إن عشقتَ، اعشق قمراً). واللي معه القمر، شو بده بالنجوم؟!

- إنه مثل شعبي جميل يا أمي.

ثم طلب منهم أن ينظروا إلى بنات نعش.

- بنات نعش!

- نعم إنهن هناك.

وأشار بيده إلى جهة السماء الشمالية الشرقية.

- إنهن سبعُ نجوم. أربع على شكل صندوق كالنعش أو التابوت، وثلاث يقفن بقربه.

- رأيتهن يا أبي.

- إنهن يشبهن المقلاة!

-إنها مقلاة تلائم قمح الشطرنج وقليته. فضحكوا.

- نعم. هذه المجموعة تسمّى مجموعة الدُّبُّ الأكبر.

- صحيح.

- والعرب يسمّونها بنات نعش.

- وأنا أسميها (بديلات القمر البائسات).

فضحكوا، وهم يقومون إلى نومهم، فيما ورد ظلَّ ساهراً يغني، حتى تحرّر قمره من فم الحوت.

موسيقى البطيخ

دخل صيفُ هذه السنة مبكِّراً. فما إن بدأ شهرُ أيّار، الشهر الخامس من العام، حتى ارتفعت درجاتُ الحرارة الطقس، وجفَّ العشبُ، وتكاثرت معرشاتُ البطّيخ، على جوانب الطرقات والشوارع.

في شارع الأردن، أوقف الأبُّ سيارته المتّجهةَ إلى عجلون، أمام معرّش بطيخ. فسألته نايا عن معنى العبارة المثبتة فوق الكومة: (ع السكين يا بطّيخ). فقال وهو يهمُّ بالنزول:

- يعني أنّكِ حين تشترين بطيخةً، يشقُّها البائعُ أمامك بسكينه، فإذا كانت حمراء، تأخذينها بعد دفع الثمن. وإن لم تكن كذلك؛ تنتقين بطيخة بدلاً منها. فقال عمر:

- عليهم أن يستخدموا طريقة أوفر، للتأكّد من حمرة البطيخ.

وقف الأب وولداه أمام تلٍّ صغيرٍ من البطيخ، بعد أن ألقوا التحية على البائع. كان البطيخ من النوعِ الحلبي الأخضر، المخطّط بالصّفرة الباهتة، وهو كما قال صاحبه من الدِّيسة. ففرح ورد:

- مياه نقيَّة!

انتقى الأب بطيخة كبيرة وأخذ يطبّل عليها براحة يده، ثم وضعها على أذنه، وكأنه يتسمّع لشيء ما، قبل أن يناولها للبائع

لوزنها. وحين عرض عليه أن يشقّها ليتأكّد من حمرتها؛ قال بثقة عالية:

- لا داعي لشقِّها. فالموسيقى أخبرتني أنها حمراء 100%.

علت وجهَ الولدين دهشةٌ كبيرة. فكيف ميَّز الأبُ نضوج البطيخة؟ وكيف عرف أنها حمراء؟!

- أذنُ أبي ترى! كما ترى أصابعي!

في السيّارة، بيّن الأب أن التطبيل على البطيخة الناضجة يعطي رنيناً خاصاً، يختلفُ عن رنين غير الناضجة.

- يا لها من طريقة طريفة! من علمك هذا يا أبي؟

- كنتُ أراقبُ أبي.

- هذه الطريقة تحتاجُ إلى أذنٍ خبيرة. قالت الأمُّ.

- بالتأكيد، فالخبرةُ والأذنُ المُوسيقية تميزانِ الرنينَ الصافي الصادر عن البطيخة الناضجة.

- بودي لو أستخدم مع البطيخ جهاز (السونار)؛ الذي يستخدمه الأطباءُ لمعرفة جنس الجنين: ذكراً كان أم أنثى؟!

- يا أخي، السونار لا يكشف اللون، لأنه يعتمد على إرسال واستقبال موجات صوتية. والصوت لا يميِّزُ الألوان!

- ذكرتني بالصوت الذي سخر مني في وادي شعيب. قالت نايا ضاحكةً.

- دعينا من ذكرياتك الآن. فنحن نريدُ جهازاً يكشفُ البطيخة الحمراء. فليس كلُّ الناس لديهم آذانٌ موسيقية، أو خبرة الفحص بالرنين، كخبرة أبي.

- حرّك مخّك يا حبيبي، واخترع لنا هذا الجهاز. ولا تنسَ أنك

وعدت بابتكار صحن ستالايت يصهر الثلج! أم أن كلامَ الشتاء يبخره لهيبُ الصيف؟!

– لم أنسَ، ولكن ليس لديّ الآن، إلا اختراعٌ وحيدٌ. هو السكين! فدعونا نشقّها، لنأكلها، ونتأكد.

– يا لك من ذكي!

– وأنتِ يا لكِ من خوّافة.

فطلبت منهما الأمُّ أن يسكتا، لنزع فتيل شِجار يلوحُ في أفق السيّارة.

ثلاجةُ الشَّمس

وصلت العائلة إلى بيت الجدِّ، وما زال الجو حاراً.

– لا يلطِّفُ حرَّ الصّيف إلا هذا. قالها عمر، وهو يحملُ البطيخة من صندوق السيارة. فتناولها منه أبوه.

– ثقيلةٌ عليك!

– دعني أطبّلُ عليها يا أبي. ثم ضرب براحة يده البطيخة مرتين متتاليتين بخفة، وطبع أذنه فوقها يتنصّت:

– حمراء حمراء.

– هل تعلَّمتم موسيقى البطيخ؟!

– نعم يا جدي. لكننا نحتاج لسنوات مديدة كي نتقنُها. فقالت الجدة بعد الترحيب:

– لم يصدف أن جدكم اشترى بطيخةً بيضاء!

– لجدي أذن مرهفة وحسّاسة!

– دعونا من الموسيقى، وهاتوا السِّكين؛ لنتأكّد ونأكل!

– عليك أن تصبر يا عمر. البطيخ ساخنٌ.

– لا صبر لديَّ لأنتظرها تبردُ في الثلاجة!

– لكنَّكَ صبرتَ ساعةً، على كراتِك السّاحرة، أيها الماكر!

وهنا يطلبُ الجدُّ من ابنه، أن يقطّع البطيخة.

– ولا يهمك يا أفندي. أنا سأبرِّدُها بسرعة في الشَّمس!

– ماذا تقول يا جدي؟! ردّ مندهشاً.

– أقول: سأبرِّدُ البطيخة بسرعة بالشّمس. ألم يعلّمكم أبوكم هذه الطريقة الطبيعيّة في التبريد؟!

– يبدو أن أبي لا ينقل لنا كامل الخبرات التي تعلَّمها منك! فضحكت العائلة، واحتجت نايا:

– لكنَّ الشّمس ستزيدُ سخونتها، وسيفسدُ طعمُها يا جدي!

شقَّ الأب البطيخة في (سدر) صحن كبير، فظهرت حُمرتُها كوردة تتفتّحُ.

– وأنت خبير يا أبي. الموسيقى تكسبُ!

ابتسم الأبُّ وهو يقسِّم البطيخة، على شكل حِزوزٍ تشبهُ الأهلَّة: كلّ حِزٍّ يشبهُ هلالاً. وهذه الطريقة تفرحُهم؛ لأنها لا تحتاج شوكة وصحناً. بل يأكلونها قضماً بالفم، وهذا ما لا يعجبُ الأمَّ. فقال عمر:

– أنا أحبُّ أن آكل البطيخ مباشرةً. ولا يروقني أن يُقطّع في صحون ليؤكل بالشوكة.

– ولكنها ساخنة، وعليك أن تنتظر شمسَ جدّك لتبرِّدها!

فتقدم الجدُّ وحمل سدر البطيخ إلى الشّرفة المشموسة.

– سأجعل الشّمس تبرِّدُها، في أقلَّ من خمس دقائق.

– يبدو أن جدِّي يصادقُ الشّمسَ! كصداقة ورد للقمر. قالت نايا، ثم كرّت ضحكتها السريعةَ المعتادة:

– ليست صداقة، بل هي الخبرة.

ظلّ الأولاد صامتين ينظرون كلَّ لحظة إلى ساعات معاصمهم. انقضت الدقائق الخمسُ، وكأنهن ساعات خمس، ليس لأنهم يتوقون لأكل البطيخ فقط، بل ليتأكدوا من أن الشمس، كانت حنونةً على البطيخة، فبرّدتها.

وبسرعة تناول عمر حِزّاً يشبهُ الهلال، وقضم قضمةً صغيرة منه ليهتف فرحاً:

- ليست حلوةً فقط. بل باردة ولذيذة. باردة يا جدي. أنت سحرتَ الشمسَ!

- كيف برَّدت الشَّمسُ الحاميةُ بطيختنا؟ فتدخّل الأب:

- بماذا تشعرين عندما يجفُّ عرقُك بعد اللعب يا حلوتي؟!

- بالبرودة.

- جميل. وهكذا البطيخة، فحين تركها جدّك في الشّمس، تبخَّر جزءٌ من مائها. والتبخُّرُ، كما تعلمون، يسحبُ الحرارةَ من الجسمِ، أي تبخُّرُ بعضِ ماء البطيخة، هو سببُ تبريدها، لأن التبخرَ يمتصُّ الحرارة!

- يا لك من ذكي يا جدي! شكر الجدُّ نايا، وقال لابنه:

- كأنك نسيتَ أن تخبرهم، عن الجرارِ الفخاريّة، التي كان يستخدمها أهلُنا لتبريد الماء، قبل اختراع الثلاجات.

- إنها تبرّد الماء، كما تبرد الشمس البطيخة!

- الجرار لها مسامات دقيقة، تسمحُ بنفاذ قطرات من الماء إلى سطحها.

- طيّب!

- هذه القطرات تتبخّرُ ساحبةً حرارةً من ماء الجرَّة.

- نعم. وهكذا يبرد الماء.

بعدها طلبت نايا من أبيها أن يشتري لهم جرة فخارية، كالتي تراها معروضة على طريق جرش عمّان.

- طلباتكِ أوامر أيّتها الحلوة.

سجنُ القميصِ على ذِمّة التجميد

كعادتها السنويَّة، كلما دخل الصيفُ، تعمدُ الأمُّ إلى غسل الثّياب الشتويّة، لحفظها بشكل جيّدٍ في الخزائن. ومن عادتها ألاّ تلقي بفم الغسَّالة قميصاً أو ثوباً أو (تي شيرتاً) إلا بعد تفتيشه بدقّة.

في جيب قميص عمر، وجدت ما يزعجها. علكة كانت تتشبَّثُ بقوة. فشلت في التخلصَ منها؛ فدخلت غاضبةً إلى غرفة الجلوس، وبيدها يلوحُ القميص:

- أنت مهمل، ولا تكترثُ لشيء. ها نحن خسرنا قميصك.

- الحقُّ على نايا. هي التي منعتني أن أرمي العلكة، كي لا تقتل العصافير!

- جميل أن تحافظ على روح الطيور. ولكن كان عليك ألا تتلف القميص. فقالت نايا:

- بما أنني السبب، كما يقولُ أخي المحافظ جداً؛ فسأخلّصكم من هذه الورطة.

- بس لا تقولي أنك تريدين قصَّ العلكة بالمقصِّ!

- لا يا فالح. سأسجنُ القميصَ في الثلاجة.

- رجعنا للجنون!

أخذت نايا القميص، ووضعته في كيس بلاستيكي، ودخلت

المطبخ، لتدسَّه في مجمدة الثلاجة. وما إن رجعت حتى سألها عمر:

- أين القميص؟

- حكمتُ عليه بخمس دقائق سجناً في (الفريزر)!

- وهل يحقُّ لي أن أنصحهُ بالركض، أو بالألعاب السويديَّة؟!

قالت الأم ضاحكة:

- لا يا أمي أرجوك. لا سويدية، ولا رياضية. خليه متكوّراً، كي لا أفقده نهائياً!

بعد دقائق أخرجت نايا القميص من المُجمّدة، وفركت بيديها العلكة، التي تيبّستْ، فتفتتتْ، كقطعةٍ من التراب.

- يا لذكائك!

- أنتِ رائعةٌ حقاً. وستكونين أكثر روعة، حينما تقولين لنا كيف ستخلصين بنطالك من البقعة الزرقاء؟!

فيبدو أنَّها نسيت قلم الحبر مقلوباً مفتوحاً في جيبها.

- إنها كبيرة كوردة ذابلة!

غضبت نايا وكادت تبكي. لكن عمر بدلَ أن يدلها على طريقة بسيطة للتخلص من بقعة الحبر ببودرة الطباشير، التي تمتصها بسرعة. بدل ذلك، ابتسم بمكر، وحاول أن يصطاد في الماء العكر:

- نايا تُخرِّبُ أكثرَ مما تصلّحُ.

- لا عليك يا ابنتي. سأزيلُ البُقعةَ بالبودرة!

عند تبريد البطيخ بالشمس تذكّر وردٌ بأن عليه، أن يُنجزَ مسرحيته عن انصهار الثلج، التي كان موعد عرضها قبل شهرٍ، لكن المعلمة اقترحت تأجيلها إلى يوم المدرسة المفتوح.

ولهذا دأب مع أصدقائه على تحسين عملهم، وحفظ أدوارهم بشكل دقيق.

- أريدها أن تعلقَ بذهنِ كلِّ من يشاهدُها!

في اليوم المفتوح، المتزامن مع احتفالات الأردن بعيد الاستقلال عن الاستعمار البريطاني في 25 أيار، غدت المدرسة خليةَ نحل، فكلُّ الصفوف تنافست لتظهرَ بأبهى زينة، وتباروا في تقديم نشاطات مفرحة ومفيدة. وأكثر ما أفرح عمر أن لا دراسةَ ترافقُ هذا اليوم.

قبل موعد العرض، تأكّد ورد من ملابس الممثلين، التي صممتها الآنسة مرام، معلمةُ التربية المهنيّة. كان زيًّاً جميلاً ومناسباً.

على خشبة المسرح الرئيس، قدمت معلمةُ العلوم المسرحية إلى الجمهور من الطلبة والضيوف.

- مسرحية بسيطة تحملُ فكرة كبيرة!

انفرجت الستارةُ عن رجل بلباس قديم، يلفُّ رأسه بكوفية بيضاء، وأمامهُ قالب ثلج ينزُّ ماءً، وكأنهُ يبكي. وعلى الحائط الذي خلفه كُتبت كلماتٌ ملونةٌ: (ارحموا رجلاً رأسُ ماله يذوبُ). فصفّق الجمهور، مع انحناءة الممثل الذي يقوم بدوره مصطفى بعد أن لُصقت له شواربُ كثةٌ سوداءُ. وبعد أن هدأ التصفيق، أخذ ينادي بصوت جهوري رنّان:

- اقتلْ صيفك بالثلج. لدينا ثلج. اشتروا ثلجاً، وارحموا رجلاً رأسُ ماله يذوب!

يتوقف أمامه ثلاثةُ فتيان. يتأملون قالب الثلج الباكي، والعبارة المكتوبة على الجدار.

- مرحباً يا عمي.

- أهلاً بالشباب. أتريدون قالباً نظيفاً؟

- تعجبني العبارة المكتوبة على الجدار! ويضيف الآخر:

- عبارة شاعرية رقيقة! ذات معنى رائع!

-هل أعجبتكم؟ أنا كتبتها. لأنني سأخسر رأس مالي، إن ذاب القالب قبل أن أبيعه.

- جميلة؟ لكنَّ خطأً علميَّاً يقتلها ويشوهها! وأضاف الثالث:

- وإن قبلت أن تصحِّحَ الخطأ، فسنشتري ثلاثةَ قوالب ثلج دفعةً واحدةً. وهنا حار البائع وارتبك، وهو ينظر إلى العبارة، فاتحاً ذراعيه مستغرباً.

- أين الخطأ يا شباب؟! إني كنتُ دقيقاً.

- ماذا نقول عند اختفاء السكر في الشاي؟

– بالطبع نقول: إنه يذوبُ! فيجيبُ الفتى الثالث بسرعة، بينما البائع مندهشٌ:

– والشمعُ يتحولُ إلى دموعٍ سائلة عند تسخينه، فنقول: إنّه ينصهرُ.

– هذا عظيم! قال البائع. وقد ظهرت عليه علاماتُ السرور.

– والآن، هل أدركت الأمر يا عمي؟

– نعم، لقد بينتم لي خطأي العظيم!

– عندما يتحولُ الشيءُ من الصلابةِ إلى السيولةِ؛ فهو ينصهرُ.

– ولا نقول: إنه يذوبُ. وهنا، ودون أن ينبس بأية كلمة، يمسك البائع إسفنجة صغيرة ويمحو كلمة (يذوب). ويكتب بدلاً منها (ينصهر). ثم يقرأ وكأنه يغني موالاً من (العتابا):

– اشتروا ثلجاً، وإرحموا رجلاً رأسُ ماله ينصهرُ. فيضحك الفتيان، ويطلبون منه ثلاثة قوالب ثلج.

وما إن مضوا حاملينها، حتى ناداهم، ملوحاً بيده:

– عليكم أن تسرعوا، قبل أن (ينصهر) ثلجكم! الجوُّ حارٌ. والثلج ينصهرُ، ولا يذوب.

انسدلت الستارة مع تصفيق إعجاب طويل، بينما ظلَّ صوت البائع يترنّم:

– الثلج ينصهرُ. ولا يذوبُ.

– الثلجُ ينصهرُ.

كيف نستردُّ قمحنا؟!

في نهايات الخريف رافقت نايا عائلتها الكبيرة إلى حقلهم الواسع في منطقة (البديّة) جنوب كفرنجة، وهي ذات تربة خصبة، تُستغلُّ لزراعة البقوليات، من بازيلاء، وفول، وعدس، وحمص، ولكنَّ الجدَّة أصرَّتْ أن تُزرع هذه السنة قمحاً.

- نريد أن نأكل خبزاً بتعبنا!

فرحت نايا كثيراً، لأنها رأت المحراث يشقُّ الأرض ويصنعُ الأثلام، مثيراً الغبار، بعد أن بذر الجدُّ حبوبَ القمح بيده.

- ماذا لو نثرنا حبوبَ القمح، دون حِراثة يا جدي؟! سأل ورد.

- الحراثة تدفنُ حبةَ القمح، لتحيا بعدها السنابلُ زاخرةً بحبوب كثيرة في الصيف! فتذكّر وَردٌ مقطعاً من قصيدة الجدارية، للشاعر العربي الفلسطيني محمود درويش وأخذ يردده مترنِّماً:

أَنا حَبَّةُ القمحِ،
التي ماتتْ
لكي تَخْضَرَّ ثانيةً
... وفي موتي حياةٌ ما.

- وكيف تزرع يا جدي؟ والدنيا لم تمطر بعد! انتظر المطر، حتى تضمنَ أن القمحَ سينبت!

- الله كريم. نحن يا بُني نثق ونأمل بعطاء خالقنا. ونقول

حينما نبذرُ قمحنا: رميتُ (حَبّي) وتوكلتُ على ربّي!

غافل عمر الجميع، وأخذ كمية من القمح، واختفى يلعب قرب الصخرة. وعندما طلبوا منه، أن يأتي لتناول الطعام جاء بسرعة.

تأمّلوا الأرض، التي ستمتلئ بالسنابل اليانعة، وتغدو بحراً أخضرَ، يتماوجُ في الربيع. وبحراً ذهبياً في الصيف. فقال الجدُّ:

- بلادنا كانت تسمى (أهراء روما)، أي إنها الصوامعُ التي كانت تخزِّنُ القمح، لأننا كنَّا نزرع بكثرة. وسلة خبز الدولة الرومانية، التي كانت تحتلُّ بلادنا، قبل مجيء الإسلام.

عاد عمر ليجد أن القمح الذي كان يلعب به اختفى بالكامل. وحين دقّق في الأرض، وجد أن النَّمل سرقه؛ فغضب وفكّر أن يهدم قريته جزاء لجريمته.

لاحظ الجدُّ ارتباك عمر، وما إن وصله، حتى وجده يشتاطُ غضباً.

- لقد سرق النَّملُ قمحي، الذي كنتُ ألعب به، وأدخله إلى بيته.

- وهل القمح للعب؟! القمح للزراعة. كلُّ حبةٍ ستصبحُ مائة، أو أكثر في الصيف.

- لم أعرف أن النَّمل لصٌّ سريع!

طلب منه ألا يحزن، ووعده باسترجاع القمح من النمل. فركض عمر لجلب الفأس، لكن الجدَّ طلب منه أن يرجعه.

- سأسترجع القمح دون أن نؤذيه، أو ننبش قريته!

- كيف يا جدي؟ قال ورد، وقد وصل مع الجميع.

صبَّ الجدُّ كميةً من الماء في قرية النَّمل.

- سيغرقُ النَّمل!

- لن يغرق. له دهاليزُ سيختبئ بها، ثم إن الأرض ستمتصُّ الماء بسرعة.

- وهل نسترجع قمحنا بالماء؟!

- اصبر يا عمر. اصبر. بعد ساعة سترى قمحك، وقد أُعيدَ إلى سطح القرية.

أخذهم الجدُّ للمعاونة في ترتيب الجدران الحجريّة، التي يسمّونها السناسل أو السلاسل، فهي تمنعُ تربة الأرض من الانجراف، وتمنحُ الحقلَ منظراً جميلاً ومرتّباً.

عمر الذي أتعبه نقل الحجارة، تسلّل ليتأكّد مما قاله جده. فرفع صوته، وكأنه وجد كنزاً:

- النَّمل أعاد القمح! النَّمل أعاد القمح!

حين وصلوا، شاهدوا كومة صغيرة من القمح المبلول، قرب سطح قرية النَّمل.

- يا لك من ذكي يا جدي!

- النَّمل أعاد قمحنا خوفاً. لأنه يعرف أنني سأهدم قريتهم على رؤوسهم، إن لم يعيدوا ما سرقوا.

- النمل لم يخفْ، ولا يخافُ، بل تصرفَ بغريزته، وعلى طبيعته.

- كيف؟

- النَّمل في العادة يُخزِّنُ الحبوبَ في قريته، بعد أن يفلقها، أي يشطرها إلى قسمين، بفكِّه القوي، لأن الحبوبَ تنمو في الرطوبة

تحت الأرض، إذا ظلَّت كاملةً، وسيخسرها النَّمل.

- سبحان الله. يا لها من غريزة!

ولأن هذا النَّمل، لم يتمكن بعد من فلق القمح، الذي أخذه من عمر، لهذا أخرجه بسرعة، حينما صببنا الماء في قريته. أخرجه لا ليعيده، بل ليجفِّفهُ. قبل أن يتمكَّن من فلقه وخزنه.

- يا لك من ذكي أيها الجدُّ الرائع!

- هذه طريقة لا تخطر على بال أحد! فتدخل وردٌ:

- أنت تقول يا جدي، إن النمل يفلقُ الحبوب إلى فلقتين؛ كي لا تنمو داخل القرية.

- نعم هذا ما يفعله.

- قرأت في مجلة وسام أن حبوب (الكُزبرة) تنمو حتى ولو شُطرت قسمين.

- النَّمل اللَّعينُ لا يحبُّ الكزبرة. ولهذا لا يخزِّنها. فقال الأب:

- على العكس يا عمر. إنه يحبها كثيراً. ولكنه بدل أن يقسمها قسمين، يقسمها إلى أربعة أقسام.

- سبحان الله. سبحان الله. ظلَّ الجد يردّد هذه العبارة، وهو يعود إلى عمله. فهمَّ عمر بجمع القمح المبلول، فرجته نايا أن يتبرّع به للنَّمل.

- إنه ذكي! ويستحق أن نهدي إليه بعضاً من قمحنا. فوافق على مضضٍ، ومضى وراء جدِّه؛ ليرتِّب السلاسل الحجرية.

نارُ الحصيدة

خطرت على بال نايا ذكريات الزراعة، وهي برفقة عمِّها للحاق بالجميع إلى البديَّة. ولكن هذه المرة إلى موسم الحصيدة والحصاد. فقد مرَّ ما يقربُ السبعة أشهر، على زراعتهم القمح، في هذا الحقل.

وها هي تتفاجأ، بأن كلَّ شيء أصبح جافّاً، يابساً، فالعُشبُ الذي كان قبل شهر يانعاً أخضرَ، غدا هشيماً بفعل الحرارة العالية لشهر أيار.

راقبت السنابل الممتلئة، فالشّمسُ جعلتها ذهبية تسرُّ الناظرين، وقمحها الناضج الثقيل جعلها تنحني، وكأنها تتواضع، وهي تقدِّمُ لنا هذا العطاء. أمّا السنابلُ الفارغة، فتراها ترفعُ رؤوسها عالياً بغباء، دون أيّة فائدة! هكذا كان يقول أبوها.

- القمحُ يعلِّمنا أشياءَ كثيرة!

كانت نايا تعتمرُ قبعةَ واسعةً من القشِّ، لتتقي أشعة الشّمس وحرّها، ورغم أن أمها وضعت لها كريماً واقياً، لكنها ما زالت تخاف من مرض وجه السلحفاة.

لجأ الجدُّ إلى الأيادي العاملة، كي يحصدوا القمح بـ(المنجل)، وهو أداة مُسنَّنة على شكّل أداة استفهام (؟)، تُتّخذُ لحصدِ السنابل، واستخدامها يحتاجُ مهارة وخبرة عاليتين.

كـان الحـصَّـادون يغنـون فـرحـين، وهـم ينحـنون بهـمـة عـاليـة؛ لحصـاد هذا البحـر الذهبي. الجوُّ كان خـانقاً حـاراً، ولا تتحرك فيه أية نسـمـة هواء تلطّفـه. عـمـر لم يعـجـبـه تذمّـر نايا المسـتـمـر من الشّمس.

– كان عليك أن تبقي في البيت. البنات لا يحصدن القمح!

– البنات قادرات على كلِّ شيء!

واحد من الحـصَّادين يلفُّ رأسـه بكوفيـة حمـراء، غنّى بصـوته الجبلي فأطرب الجميع:

منجلي ومن جلاه،

راح للصايغ جلاه.

الأب وضّح لهم معنى الأغنية، بـأنّ هذا الحصّاد يتغـزل بمنجله الذي شـحـذه وسنّه، وجعله مـرهفـاً قـاطعـاً، عند الحـداد أو الصـايغ، وهو المتخصص بهذه المهمة.

رأت نايا جدها يحمل بيده غمـاراً منَ السنابل. أي ضُمة كبيرة. فحيّاها:

– اقتربي أيتها الحصَّادة الرقيقة، فاقربت وقبّلته.

– لماذا تحـصـدون بـالسكاكين العـوجـاء، بـدلاً من الحـصّـادات الحديثة؟

– هذه منـاجل، وليـست سكاكين، وقـد اضطررنـا لهـذا، لأننـا لم نجد حصّادة آليةً تقبل بالقدوم إلينا.

– لماذا؟!

– يقـولون إنّ منطقـتنا جـبليـة. والحـصَّـادات لا تعـمل إلا في السـهـول. والكمـيـات المزروعـة لا تسـتـحق أن نسـتـأجـر لهـا حصّـادة.

فالناس لم تعد تهتم بالقمح وزراعته!

ارتفعت درجات الحرارة أكثر، فازداد شعور نايا بالاختناق، وتمنّت لو أن الهواء يهبُّ، ولو بنسمة صغيرة، علَّه يجفِّفُ عرقها، فيخفِّف من حرارتها. وأخذت تهفهفُ بيدها على وجهها؛ لتحرك الهواء.

- كيف تتحمّلون هذا الحرَّ الخانق؟

- الخبز جدير بالتَّعب يا صغيرتي!

- لو يتحرك الهواء قليلاً؛ فينعشنا. قالت وقد زادت حدة تذمّرها. فضحك الجدُّ، وهو يرفعها بيديه عالياً.

- سأحرك لكِ الهواء بالنار!

- الهواء بالنار! وكيف تحرك الهواء بالنار؟!

طلب الجدُّ من بعض العمال، أن يجمعوا القشَّ، والأعشاب اليابسة، ويضعوها بعيداً عن سنابل القمح.

- سنشعلُ ناراً كبيرة؛ لنحرِّك الهواءَ للأميرة نايا! فغضب عمر، وهو يجمع القشَّ، ويكوِّمه لستِّ الحُسن، كما يقول.

وقفوا يراقبون كيف سيحرِّك الجَدُّ الهواء بالنار، فهم أيضاً متلهفون لنسمة هواء تلطِّفُ حرارتهم.

في هذا الحين تأكَّد ورد، أنّ جده سينجحُ في تحريك الهواء. فالذي يبرِّدُ البطيخ بالشّمس يستطيعُ أن يلطِّف الجوَّ بالنار.

- لا بدَّ أن لديه خطة!

اشتعلت النّار في كومة القشِّ الكبيرة، وارتفعت ألسنةُ اللهب، فابتعد الجميع عنها، بمقدار خمسة، أو ستة أمتار، كما طلب منهم الجد.

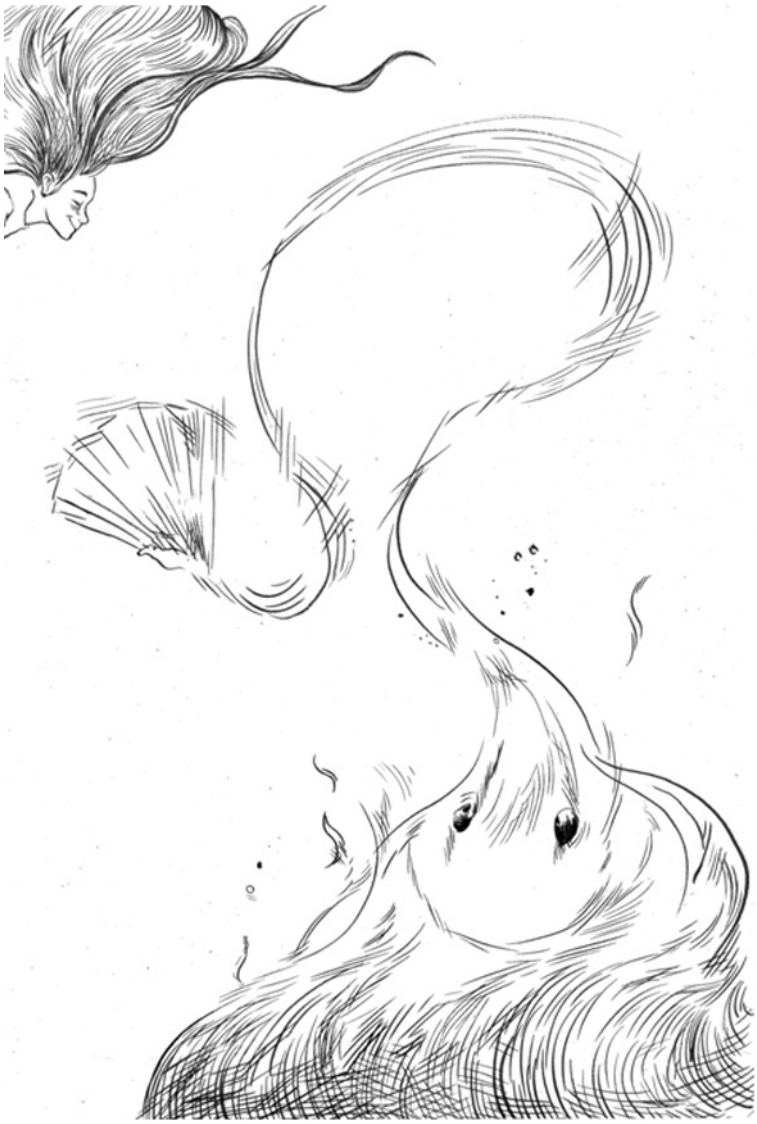

- الآن سيتحرك الهواء!

وما إن أكمل جملته، حتى أخذت قبعةُ نايا بالارتعاش. وأحست بنسمة هواء تهبُّ على وجهها، وتلطف من حرارتها، ففرحت. فقال ورد مبتسماً:

- أنت رائع يا جدي. نحن ننتعشُ حينما يجفُّ عرقُنا، والهواء المتحرك يجفِّف العرقَ، كما يجفُّ الغسيل المنشور على الحبل!

- ولكن كيف تحركَ الهواءُ؟ والجوُّ ساكنٌ! سأل عمر، فتدخل الأب:

- تعرفون أن الهواء الساخن يرتفع إلى أعلى، لأن كثافته تقلُّ، فيحلُّ مكانه هواءٌ أقلُّ سخونةً. وهكذا يصبح لدينا ما يشبه الدولاب الهوائي، أو المروحة التي تحرّكُ الهواء.

- مروحة النار يا جدي!

- أجدادنا كانوا يسمُّونها: (نار الحصيدة). فهم يوقدونها لتحريك الهواء في (حنانية الشوب)، أي عندما تشتدُّ درجات الحرارة.

- شكراً جدي. أنت تحرك الهواء بالنار وتثير الأفكار!

قمرٌ كبير

اليوم هو السبت 22 حزيران (الشهر السادس) 2013، والثالث عشر من شعبان 1434 هجري. والعائلة في مثل هذه العطلة تتأخر عادة في عجلون، وأحياناً لمّا بعد السّهرة.

لكنّ ورد، وبعد أن شاهد قمر نيسان في رمٍّ، وقمرَ أيار في عجلون، أراد أن يشهد شروق البدر في عمان. فرجا عائلته أن يعودوا لعمان بعد العصر.

– أريدكم أن تشاهدوا قمرها الكبير.

بعد غروب الشمس، وقفوا في شرفة البيت. عمّان وبيوتها تثيران في نفوسهم معاني التقارب والأخوة. انتظروا القمر. وما هي إلا دقائق معدودة، حتى شعَّ من بين البيوت نورٌ قوي. بزغ ببطء قرص ياقوتي أنيق. وبعد أن ارتفع بمقدار متر في أفق البيوت، فرح ورد بهذا القمر الضخم:

– إنه أكبر بكثير من قمر عجلون! أصدّقتم ما قلتهُ يا أبي؟!

ثم أخبرهم بأنّه يراقب القمر منذ سنة. ففي عجلون يبدو صغيراً، وأنه قال لأبيه مازحاً حينها، بأنه تقلّص وانكمش في البرد. وفي وادي رمٍّ كان القمر معتدلاً طبيعيّاً. لم يكن كبيراً، ولا صغيراً.

– وها هو قمر عمّان الجميل يبدو كبيراً هذه الليلة!

– ما أكبرك أيها القمر! فقال الأب، بأن القمر هو القمر. في عجلون، أو رمٍّ، أو في عمان، أو الصين.

- لكنه متغيّر الحجم يا أبي؟!
- القمرُ هو القمر! لكنَّ العين تخدعُنا!
- كيف؟
- في عمان يشرقُ القمر من بين البيوت، فيبدو واسعاً كبيراً!

فيكمل ورد:

- وفي عجلون يشرقُ من بين الجبال الكبيرة فيبدو صغيراً.
- أحسنت.
- والقمر هو القمر.

الأب طلب من العائلة أن تتبعه إلى غرفة نايا. فأخذ قلمَ رصاص، ووضعه جوار مسطرة قصيرة على الطاولة.

- هل ترون القلم طويلاً؟
- نعم. ثم وضعه جوار عصا طويلة.
- والآن. كيف يبدو القلم؟
- قصيراً!
- البدرُ يشرقُ في عجلون، فتقارنهُ العينُ بالأشياء القريبة منه، أي بالجبال الكبيرة؛ فيبدو صغيراً.
- وفي عمان تقارنهُ العينُ بالبيوت الصغيرة، التي يشرق من بينها؛ فيبدو كبيراً. فهمس ورد:

- قمري ليس كبيراً،
وليس صغيراً،
قمري نفسي طول الدهر!

فهتفت العائلة بصوت حنون:

- أجملُ قمرٍ قمرُ ورد!